مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثاني ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

ذو القعدة ١٤٠٨هـ ـ حزيران ١٩٨٨م

طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس (١)

الدكتور محمود علي مكي

عضو المجمع

نسبه وأيامه الأولى

هو طارق بن زياد بن عبدالله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُّوم بن بنزغاسن بن وَلْهَاص بن يَطُّوفَت بن نَفْزاو (٢) ، فهو بربريّ من نَفْزَة (٣) ، وهو مولى لموسى بن نُصَير (٤) من سبى البربر (٥) ، ويكون اسمه الكامل : طارق بن زياد النَّفْزاوي البربري (٦) من إفريقية (٧) .

---

(١) أصل مصطلح الأندلس ، مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني ، احتلت شبه الجزيرة الأيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها: (فاندلسيا Vandalusia)، أي : بلاد الوندال ، ثم نطقت بالعربية : (الأندلس) . أما مدلول هذا المصطلح ، فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون على كل شبه الجزيرة الايبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) ، والتي يسمونها أيضاً : (الجزيرة الأندلسية) ، ثم استعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الايبيرية ، انظر التاريخ الأندلسي (٣٧) وجغرافية الأندلس (٥٩) والروض المعطار (٤ – ٦ – و ١٩) ونفح الطيب (١/١٣٣ – ١٣٥) ومعجم البلدان (١/٣٤٧– ٣٥٠) والمسالك والممالك (٣٥) وتقويم البلدان (١٦٥ – ١٦٦) .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢ / ٥) .

(٣) نفزة : هي نفزاوة ، قبيلة من قبائل البربر الكبيرة ، والبربر قسمان : البرانس والبتر ، ونفزاوة قبيلة من قبائل البتر ، انظر : محمد علي دبوس – تاريخ المغرب الكبير (٢/٣٥) – القاهرة – ١٣٨٢ هـ – ط ١ ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) .

(٤) موسى بن نصير : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي(١/٢٢١ – ٣٠٩).

(٥) انظر تفاصيل القبائل البربرية في : جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ – ٥٠٣) .

(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٦٤) .

(٧) إفريقية : اسم بلاد واسعة ، حدها من طرابلس الغرب شرقاً إلى بجاية أو مليانة غرباً ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٤٨) ، وأنظر نسبته إلى إفريقية في المغرب ، نقلا عن الطيب (١/٢٣٠) .

وهذا هو الذي نعتمده لطارق بن زيادة نسباً وموطنا ، لأنه أقرب الى العقل والمنطق ، ومع ذلك لابد من ذكر الاختلاف في نسبه وموطنه ، لتعليل أسباب هذا الاختلاف .

فقد ذكروا أنه طارق بن عمرو (٨) ، لا طارق بن زياد ، والمعروف في المصادر المعتمدة التاريخية والأندلسية ، أنه : طارق بن زياد ، فهو الاسم المشهور به على أوسع نطاق ، والمصادر التي ذكرته بأنه : طارق بن عمرو قليلة جداً ، لا تُعدّ شيئاً بالنسبة للمصادر المعتمدة التي ذكرته باسم : طارق بن زياد . كما انّ المصادر القليلة التي ذكرته باسم : طارق بن عمرو ، ذكرته بعد ذكر اسمه المعروف به والمشهور به وهو : طارق بن زياد ، وكان ذكره باسمه الجديد بهذا التعبير : « وقيل : طارق بن عمرو »(٩) ، ولا يخفى أنّ مثل هذا التعبير بالنسبة للمؤلفين القدامى ، يدلّ على عدم الثقة بصحّة المعلومات الواردة بعد تعبير : « قيل » ، أو أنها أقل أهمية من المعلومات الموثّقة الشائعة .

وذكروا أنّ طارق بن زياد ، كان فارسيّاً هَمَدَانِيّاً (١٠) — نسبة إلى مدينة هَمَدان الفارسيّة — وهذا غير منطقيّ ولا معقول أيضاً ، ولعلّ الذين نسبوا طارقاً إلى الفُرْس ، استهدفوا قسماً من عَقِبِهِ الذين كانوا في الأندلس وأصبح لهم شأن يُذكر فيها ، للحطّ من منزلتهم الاجتماعية ، باعتبار تميّز العنصر العربي على عهد بني أُمية على العناصر الأعجميّة ، وبذلك استهدفوا بهذا الغمز قسماً من عَقِب طارقٍ ولم يستهدفوا طارقاً بالذات . كما يمكن أن يكون الذين نسبوا طارقاً إلى الفرس ، بعد أن أصبح علماً من الأعلام البارزة قدراً وجلالا ، ليفخروا بنسبته إليهم ، فكلّ أُمّة من الأمم تحاول أن تنسب إليها أصحاب الصفحات الناصعة في التاريخ ، لتفخر بهم بين الأمم . ومن

(٨) بغية الملتمس (١٠) ونفح الطيب (٢٣٠/١) نقلا عن ابن بشكوال .
(٩) بغية الملتمس (١٠) .
(١٠) أخبار مجموعة (٦) لمؤلف مجهول ، ونفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي .

الواضح أنّ نسبة طارق إلى الفُرس تمّت بعد وفاته ، فهو لم يعرف هذا النسب في حياته ، وما كان يمكن أن ينسب إليه وهو لايزال على قيد الحياة .

وذكروا أنّه رجل من صَدَف(١١) ، وقيل : إنّه من موالي صَدَف ، وليس بمولى موسى بن نُصَيْر (١٢) ، وكان بعض عقب طارق بالأندلس ينكرون ولاءه لموسى إنكاراً شديداً (١٣) .

وذكروا أنه طارق بن زياد اللَّيْثيّ (١٤) من بني لَيْث من قُضاعة (١٥) ، أي أنه عربيّ من قُضَاعة .

ويقال : إنّ طارقاً مولى الوليد بن عبدالملك بن مروان (١٦) ، وقد تولّى الوليد الخلافة بعد وفاة أبيه عبدالملك بن مروان .

وطارق ليس من الصَّدف ولا من بني لَيْث العرب ، والذين نسبوه إلى بني الصَّدف ، أرادوا أنّه من مواليهم (١٧) ، كما أن الذين نسبوه إلى بني ليث قصدوا أنّه من مواليهم (١٨) أيضا ، لأنهم يعلمون حقّ العلم أنّه بربريّ وليس عربيا . ومن المحتمل أنّ قسماً من عَقِبه في الأندلس ، ادّعوا انتسابهم

---

(١١) الصدف : هم قبيلة الصدف ، من بني حضرموت ، وهو الصدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٦١) ، وكانوا في إشبيلية وهم بنو حضرموت ويسمون : بنو خلدون الأشبيليون ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٦٠) ، وانظر نسبة طارق إلى قبيلة صدف في : نفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي ، و (٢٣٩/١) .

(١٢) أخبار مجموعة (٦) .

(١٣) نفح الطيب (٢٥٤/١) نقلا عن الرازي .

(١٤) ابن خلدون (٤ / ١١٧) وأنظر نفح الطيب (١/ ٢٣٢) ، وبنو ليث هم : بنو ليث ابن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣ – ٤٤٥) .

(١٥) انظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣ – ٤٤٤) .

(١٦) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤١) .

(١٧) أخبار مجموعة (٦) .

(١٨) الأعلام (٣١٣/٣) .

للعرب ، في وقت كان للعرب فيه مكان مرموق ، فأقحم بعض المؤرخين عن قصد أو عن غير قصد هذا الأدّعاء ، الذي لا سند له من الواقع ولا من التاريخ .

اما الادّعاء بأنّه مولى للوليد بن عبدالملك ، فادّعاء لا أساس له من الصحّة ، إذ لو كان مولى للخليفة الوليد لولاّه القيادة ، ولم يترك توليته للقائد موسى بن نُصَير . ولا نعلم أنّ طارقاً رحل إلى المشرق واتصل بالوليد ، ولا نعلم أنّ الوليد قدم المغرب واتّصل بطارق ، فلا صلة من ناحية الولاء بين طارق والخليفة الوليد من قريب ولا من بعيد ؛ وليس من المستبعد أنّ بعض عَقِب طارق ، أراد أن يرفع درجة ولاء جدّهم طارق ، من رتبة مولى موسى بن نُصَيرْ ، أحد ولاة الخليفة وأحـد قادته إلى رتبة مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وهي أرفع من رتبته الأولى على كلّ حال .

وكان من نتائج كلّ تلك الادّعاءات ، إنكار بعض عَقِب طارق بالأندلس ولاءه موسى إنكاراً شديداً .

ولو لم يكن طارق مولى لموسى بن نُصَيْر حقّاً ، لما أنكر (بعض) عَقِبه هذا الولاء ، ولم ينكره (جميع) عقبـه ، ومن الواضح أنّ المُنكِرين ادّعوا انتسابهم للعرب تارة ، والولاء للعرب تارة ، والولاء للخليفة تارة أخرى ، لأنّ هؤلاء المُنْكِرين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا موالى للموالى ، لأنّ موسى بن نُصَيرْ مولى لعبدالعَزيز بن مروان أخ الخليفة عبدالملك بن مروان ، وطارق مولى لموسى بن نُصَيْر ، فعَقِبُه يكونون موالى للموالى ، وهذا ما لم يستطيعوا تحمّله ولا تقبّله ، وبخاصة بعد أن تبدّلَ حالهم غير الحال ، وأصبحوا من ذوي المكانة والمكان في الأندلس .

نستطيع أن نستنتج ، أنّ طارق بن زياد بربريّ من قبيلة نَفْزاوة إحدى قبائل البتر من البربر ، وهو مولى لموسى بن نُصَير ، الذي اكتشف كفاياته

القياديّة والادارية ، فولاّه أولاً على طَنْجَة (١٩) ، ثم ولاّه على قوّات فتح الأندلس ، كما سيرد تفاصيل ذلك وشيكا .

ولابدّ أن يكون إسلام طارق وحسنُ إسلامه ، أحدَ المزايا التي حملت مولاه موسى بن نُصَيْر على الثقة به والاعتماد عليه ، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الاسلام ، إذ أسلم والد طارق أيام عُقْبَة بن نافع الفِهْريّ(٢٠). والتحق هو بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان إذ ذاك صغير السنّ ، ولكنّه كان يتمتّع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الاسلامي ، جعله من أشدّ المقرّبين إلى موسى بن نُصَير ، ومن الطبقة الأولى من رجال البربر الذين اختصّهم بسرّه وثقته المطلقة ، وأشركه مشاركة عمليّة في رفع راية الاسلام (٢١) .

ويبدو أنّ جدّ طارق ، وهو عبدالله ، كان مسلماً ، بدليل اسمه العربيّ الاسلامي ، مما يدلّ على أنّ طارقاً وُلد في بيت إسلامي وترعرع في هذا البيت ، وشبّ في مجتمع إسلاميّ ، ولعلّ تدينه العميق لفت إليه الأنظار . بالاضافة إلى مزاياه وكفاياته الأخرى ، وكان قربه من موسى بن نُصَيْر قد أتاح له الفرصة المناسبة لتوليّ المناصب الادارية والقيادية المناسبة ، فنجح في الادارة وفي الفتح معا .

---

(١٩) طنجة : مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط ، بينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد ، انظر التفاصيل في : معجم البلدان (٦١٢/٦) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٣٢) .

(٢٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٩٠/١ – ١٣٦) وكتابنا : عقبة بن نافع .

(٢١) الشيخ محمد ابو زيد طنطاوي – فتح العرب للأندلس – مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة (٤٣ – ٤٤) – العدد الثاني – السنة العاشرة – رمضان ١٣٩٧ هـ – مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

في فتح طنجة

بعد أن تمّ لموسى بن نُصَيْر ، إخضاع المغرب الأوسط (٢٢) والمغرب الأقصى (٢٣) ، من صحراء دَرْعَة (٢٤) . إلى السُّوْس الأقصى (٢٥) إلى بلاد المصامدة (٢٦) ، تطلّع موسى نحو طَنْجَة التي كانت تخضع للأمير الرُّومِيّ يُلْيَان (جوليان Julian) منذ أيام عُقْبَة بن نافع .

والمقصود بطنجة هنا ، هو الولاية التي كانت تتّسع في القديم لمسيرة شهر ، وليس المدينة فقط (٢٧) .

وقد خرج موسى بن نُصَيْر من القَيْروان (٢٨) لفتح طنجة ، وجعل على مقدّمته مولاه طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى

---

(٢٢) . المغرب الأوسط : من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ – ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٥٣) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٥ – ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ – ٨٨) وصفة المغرب (٢ – ٢٩) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٣ – ٣٨) ، وهو جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر ، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢٣) . المغرب الأقصى : من ساحل البحر المحيط غرباً إلى تلمسان شرقاً ، ومن سبتة الى مراكش ثم الى سجلماسة وما في سمتها شمالا وجنوباً ، انظر تقويم البلدان (١٢٢) ، والمصادر المنوه عنها في المادة (١) أعلاه مباشرة ، وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر ، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢) .

(٢٤) . درعة : مدينة بالمغرب ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤ /٥٣) .

(٢٥) . السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط ، والسوس الأقصى اسم مدينة أطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ، ذات المدن والقرى الكثيرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٢/٥) والمسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(٢٦) . المصامدة : جمع مصمودة ، وهي قبيلة مصمودة بن برنس ، من قبائل البربر البرانس ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٠) .

(٢٧) . تاريخ المغرب العربي (٢١٢) .

(٢٨) . القيروان : مدينة كبيرة معروفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٣/٧ – ١٩٥) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ – ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٤٤ – ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢) .

بلغ مدينة طنجة ، وهي قصبة بلادهم وأُمّ مدائنهم (٢٩) . فلما دنا موسى من طنجة ، بثّ السَّرايا ، فانتهت خيله إلى السّوس الأدنى (٣٠) ، فوطئهم وسباهم ، وأدّوا إليه الطّاعة ، وولىّ عليهم والياً أحسن فيهم السَّير (٣١) .

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها (٣٢) ونزلها ، وهو أوّل مَنْ نزلها واختطّ فيها للمسلمين (٣٣) ، فأسلم أهلها ، وخطّ موسى قيروانا للمسلمين(٣٤).

وسار موسى إلى مدائن على شطّ البحر ، فيها عُمّال لصاحب الأندلس ، قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن مدينة سَبْتَة (٣٥) ، وعليها يُلْيَان (جوليان) ، فقاتله موسى ، فألفاه في نَجْدَةٍ وقوّة وعُدَّة ، فلم يُطِقْهُ ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه ، وأخذ في الغارات على مَنْ حولهم والتّضييق عليهم ، والسُّفن تختلف إليهم بالميرة والامداد من الأندلس من قِبَل ملكها غَيْطَشَة ، فهم يذبّون عن سبتة ذبّاً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامّة (٣٦) . وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس (٣٧) ، مما ساعد على ثباتها بوجه المسلمين الفاتحين .

وكان بطنجة من البربر بطون البُتْر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطّاعة(٣٨)

(٢٩) . نفح الطيب (١/٣١٥) و (١/٢٣٠) .

(٣٠) . السوس الادنى : كورة كبيرة بالمغرب، مدينتها طنجة، والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية ، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧٢) والمشترك وضعاً (٢٥٩) .

(٣١) . فتح مصر والمغرب (٢٧٦) .

(٣٢) . نفح الطيب (١/٢١٥) و (١/٢٣٤) .

(٣٣) . البلاذرى (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٦) .

(٣٤) . نفح الطيب (١/٢٣٤) .

(٣٥) . سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلا د المغرب ، تقابل جزيرة الأندلس ، على طرف الزقاق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٦) .

(٣٦) . نفح الطيب (١/٢٣٤) .

(٣٧) . معجم البلدان (٥/٢٦) .

(٣٨) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ، وانظر ما جاء عن ذلك مختصراً في كتاب : الاسلا م والعرب (١٤٠) .

فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط فيها مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان ، ولكنّ مروان انصرف وخلّف على جيشه طارق بن زياد (٣٩) .

وبذلك تمّ فتح المغرب الأقصى ، إلاّ إقليم سبتة ، وانتشر الاسلام في أرجائه انتشاراً سريعاً وواسعا .

وعاد موسى إلى القيروان ، بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد،وترك معه تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعُدّة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وخلّف موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ، ليعلّموا البربر القرآن الكريم وفرائض الاسلام (٤٠) .

وفي الطريق الى القيران ، فتح موسى مدينة مَجّانة (٤١) على مسيرة خمسة أيام من القيران (٤٢) ، على الحدود الجزائريّة ـ التونيسّة الحالية (٤٣) ، وكانت مجّانة قلعة تحصّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان (٤٤) ، فاستعاد موسى فتحها ، لأنّها سبق أن فتحها بِسْر بن أبي أرْطاة (٤٥).

لقد افتتح موسى بلاد المغرب ، وغنم منها أموالاً لا تُعدّ ولا تُوصف)، وله بها مقامات مشهورة هائلة (٤٦) ، وأسلم أهل المغرب على يديه ، وبثّ

(٣٩) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٥) .
(٤٠) . نفح الطيب (٢٢٤) .
(٤١) . مجانة : بلد بافريقية ، بينها وبين القيروان خمس مراحل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧) .
(٤٢) . معجم البلدان (٣٨٦/٧) .
(٤٣) . تاريخ المغرب العربي (٢١٤) .
(٤٤) . ابن الأثير (٢٠٦/٤) .
(٤٥) . فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٢٨٦/٧) ، وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطأة في : قادة فتح المغرب العربي (١٣/٢-٣٥).
(٤٦) . البداية والنهاية (١٧١/٩) .

فيهم الدين والقرآن (٤٧) ، فكان يأمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين (٤٨) ، فلم يبق في إفريقية مَنْ ينازعه (٤٩) ، غير منطقة سَبْتَة وعلى رأسها يُلْيَان (جوليان) .

لقد لمع اسم طارق بن زياد ، قائداً مرءوساً لموسى بن نُصَيْر ، في مسيرة الجهاد الطويلة ، التي بدأت من القيروان ، واستمرت غرباً حتى تمّ لها فتح طنجة ، وكان طارق على مقدّمة موسى في هـذا الفتح المبين ، وتولية طارق قيادة المقدمة ، في مسير الاقتراب ، وفي المناوشات التي تكلّلت لأوّل مرة بفتح طنجة ، دليل على ثقة موسى الكبيرة بطارق ، ودليل على كفاية طارق القيادية .

وبعد أن عاد موسى إلى القيروان التي اتخذها مقراً له ، خلّف طارقاً على طنجة . والياً على المدينة ومنطقتها الشاسعة المهمة ، وبخاصة في موقعها الحيويّ السَّوْقِيّ ، الذي هو بتماس شديد مع يليان في سبتة الذي أثبت جدارته في الدفاع عن حوزة سبتة وما حولها ، وقاوم المسلمين مقاومة عنيفة ، فاستطاع أن يصدّهم عن فتح بلاده إلى حين . كما أنّ طارقاً في منطقة طنجة السَّوْقِيّة ، هو بتماس شديد مع دولة الأندلس وحماتها الذين كانوا وراء نجاح يليان في دفاعه العنيف ونجاحه في دفاعه الذي تميز بالحركة التّعبويّة ، وكلّ ذلك دليل قاطع على ثقة موسى بطارق . الذي أصبح والياً على منطقة طنجة . وقائداً لحامية مدينتها بخاصة والمجاهدين من البربر بعامة ، ومشرفاً على نشر الاسلام وتعليم القرآن وتعاليم الدين الحنيف ، فأثبت أنّه أهل لتلك الثقة ، وقادر على النهوض بواجباته الكثيرة . بكفاية عالية وحماسة وإيمان واندفاع .

---

(٤٧) . البداية والنهاية (١٧٢/٩) .
(٤٨) . البيان المغرب (٣٦/١) .
(٤٩) . ابن الأثير (٢٠٦/٤) .

وقد أتاح الاتّصال المباشر لطارق بموسى بن نُصير ، فرصة إظهار مواهبه الادارية والقيادية ، فولاّه موسى منصب الوالي على طنجة ومنصب القائد على قوّاتها المسلحّة . ولكنّ هذا الاتّصال المباشر لطارق بموسى باعتبار أنّ طارقاً هو مولى لموسى ، ليس السبب لتولية طارق هذين المنصبين الرفيعين ، في أخطر منطقة من مناطق الشمال الافريقي بعد فتحه ، إذ لا يمكن إسناد مثل تلك المناصب في أخطر الظروف والأحوال ، إلاّ لمن يستحقها كفايةً واقتدارا ، وإلاّ كانت نتيجة تولية غير ذوى الكفاية والقدرة كارثة محققّة أكيدة تصيب الفتح والفاتحين ، وتؤدي إلى خسارة المنطقة بكاملها بالاضافة إلى خسائر بالأرواح والممتلكات وتحطّم المعنويات ، وهذا مالا يمكن أن يقع فيه قائد مجرّب حصيف مثل موسى بن نُصَيْر ، ومن المشكوك فيه أن يقع فيه قائد غير مجرّب وغير حصيف أيضاً .

إنّ الأتصال المباشر لطارق بموسى ، أتاح له الفرصة لاظهار كفاياتهُ الادارية والقيادية ، وهذه الكفايات اتّصاله المباشر بالقائد العام لشمالي إفريقية ، هي التي جعلت المناصب الادارية تسعى إليه ولا يسعى إليها . وقد أتاحت المسيرة الطويلة في الجهاد لموسى ، أن يكتشف عن كثب كفايات طارق ، فولاّه الادارة والقيادة عن اقتناع ، وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) ، وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب ، مُهمّتهم نشر تعاليم الاسلام بين البربر (٥٠) .

---

(٥٠) . ابن حبيب (٢٢٢) وابن عبدالحكم (٢٠٤ – ٢٠٥) وذكر بلا د الأندلس (٨٣ – ٨٤) رقم ٨٥ ج وابن الأثير (٥٤٠/٤) ووفيات الأعيان (٣٢٠/٥) والبيان المغرب (٤٢/١) والنويري (٢٢/٢٢) وابن خلدون (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٣٩/١) ، وانظر تاريخ المغرب العربي (٢١٤) والفتح والا ستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس (١٤٣)

وليس كالأتصال المباشر في ميدان الجهاد ، في أحرج الظروف والأحوال ، وفي مواجهة المعضلات الادارية وإيجاد الحلول الناجعة لها ، ما يظهر المرء على حقيقته في كفاياته ومزاياه واقتداره ، وهذا أبرز طارقاً إدارياً وقائداً .

جهاده في الأندلس

١ ـ مقدّمات الفتح

أ ـ الأسباب

كان فتح الأندلس نتيجة طبيعيّة لتمام فتح المغرب ، لأنّ الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب (٥١) ، ولأنّ الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الاسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الافريقي ، واستقرار الفتح فيه بانتشار الاسلام في ربوعه ، وبوجود القوّة الضّاربة بجانب العرب المسلمين والبربر المسلمين .

ولم تستعص على موسى بن نُصَيْر غير مدينة سَبْتَةَ (Geuta) لمناعتها ووصول الأمدادات إليها من إسبانيا القوطيّة عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قَبَل القُوْط (٥٢) حاكم اسمه : جوليان ، أو كما يسميه الاسبان (خوليان Julian) ويسميه العرب : يُلْيَان (٥٣) ، أو إليان (٥٤) ، او يوليان (٥٥) . وقد اختلفت المصادر في شخصيّة يليان . فبعضها يذكر أنّه قُوطيّ ، وبعضها يزعم أنّه روميّ . وبعضها ينسبه إلى بربر قبيلة غمارة (٥٦) . والواقع أنّ

(٥١) . المسالك والممالك للأصطخري (٣٣) .
(٥٢) . يذكر صاحب : أخبار مجموعة ، أن موسى بن نصير سار الى مداين تقع على شاطى ء البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس ، على رأسها سبتة ، انظر : اخبار مجموعة في فتح الأندلس (٤) .
(٥٣) . البيان المغرب (٦/٢) .
(٥٤) . صفة المغرب للبكري (١٠٤) .
(٥٥) . ابن الأثير (٢١٣/٤) .
(٥٦) . انظر تاريخ المسلمين في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢ – ٥٣) .

يليان كان حاكماً عاماً على إقليم موريطانيا الطنجيّة ، وهي تابعة لموريطانيا القيصريّة ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطيّة ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولّت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية(٥٧)، وقد بدأ يليان ولايته لهذا الاقليم في سنّ مبكّرة ، وأنه أقام مدّة طويلة في في أرض المغرب ، حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنّوه بربريّاً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنّه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، لبعد مدينته عن بيزنطة ، واضطراب أمور بيزنطة في تلك الأيام (٥٨) .

وكان يليان حليفاً لملك إسبانيا غيطشة (Witiza) الذي تولىّ عرش البلاد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٧٠٠ م) بعد وفاة أبيه إخيكا (Egica) ، وقد خُلع غيطشة عن العرش على أثر ثورة قام بها نفرٌ من أنصار لذريق (٥٩) (Robrigo) . وأثار اغتصاب لذريق للعرش الاسباني نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبّوا على هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشّرعيّ ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ، ظلّت مستمرّة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس .

وفرّ ابن غيطشة المدعو وقلة (Achila) الذي تولىّ العرش بعد أبيه إلى إفريقيّة ، وأقام عند يليان حاكم سبتة الذي كان لا يزال على ولائه

(٥٧) . ذكر الحميري أن يوليان هذا ، كان عامل لذريق على سبتة – انظر الحميري – صفة جزيرة الأندلس – نشره ليفي بروفنسال – القاهرة – ١٩٣٧٧ م .

(٥٨) . انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ – ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣–٥٤) .

(٥٩) . ورد اسمه في تاريخ الطبري (٢٤٥/٥) : ادرينوق ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) : لذريق ، وفي ابن الأثير (٢١٣/٤) : رذريق ، وفي ابن خلدون (١١٧/٤): لذريق ، وفي اليعقوبي (٢٩/٣) : أدريق .

للملك غيطشة وأولاده ، بينما استبقى لذريق ولدى غيطشة الآخرين وهما : أرطباس (Arzavasdcs) والمند (Almundo) إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة . وساءت حال البلاد في عهد لذريق ، اذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة ، لحاجته إلى المال اللازم لمواجهة أعدائه . ويبدو أنّه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطيّة ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيستي (سان بدرو) و (سان بابلو) في طُلَيْطِلَة (٦٠) ، فنصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك ، فلم يُصغ لنصحهم ، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب ، وهي أسطورة بيت الحكمة (٦١) .

وقد حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصيّة يُلْيَان ، وأثبتوا وجودها فعلاً ، بعد أن كان قسم من العلماء الغربيين ، قد ذهبوا إلى أنّه شخصيّة أُسطوريّة خلقها خيال العرب (٦٢) .

---

(٦٠) . طليطلة : مدينة كبيرة في الأندلس ، على شاطيء نهر تاجة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٦/٦) وتقويم البلدان (١٧٦ – ١٧٧) .

(٦١) . خلاصة هذه الأسطورة ، أنه كان في طليطلة ، دار ملك القوط ، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط . وكانت العادة ، أنه إذا تولى من القوط ملك ، زاد على البيت قفلا ، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت ، فأعظم ذلك أكابرهم ، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك ، فأبى وظن انه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخله ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه ، الا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان ، وتابوت عليه قفل ، فأمر بفتح التابوت ، فألفاه فارغاً ليس فيه شيء غير شقة مدرجة ، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم ، متقلدي السيوف ، متنكبي القسى ، رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت فاذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصورة ، فأن الأمة المصورة قد تغلب على الأندلس وتملكها .
لنظر التفاصيل حول هذه القصة في : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (٣٢ – ٣٣) والبيان المغرب (٤/٢) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢٣١/١ – ٢٣٢) و (٢٣٥/١) .

(٦٢) . انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٥٢ – ٥٣) .

وقد عرف المسلمون يليان أوّل مرّة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٩ م) ، وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة ، وكان الودّ معقوداً بينه وبين يليان (٦٣) . فلما أراد المسلمون فتح سبتة ، دافع عنها يليان دفاعاً شديداً ، واستطاع صدّ المسلمين عن فتحها ، كما ذكرنا ذلك (٦٤) .

وكان موسى يتوق إلى افتتاح سبتة ، وتطهير إفريقية من البقيّة الباقية من الأعداء . وبينما كان يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنيّة ، جاءته رسالة من يليان ، يعرض فيها تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح إسبانيا . وتختلف الروايات في أمر هذا الاتّصال ، فيقال إنّ موسى ويليان اتّصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتّصلا بالمقابلة الشخصيّة ، وأنّ يليان استدعى موسى إلى سبتة ، وهناك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنّهما اجتمعا في سفينة في البحر (٦٥) . وتقول روايات أخرى ، بأنّ يليان سار إلى طارق بن زياد والي طنجة ، وأخبره بأنّه مستعد للتعاون مع جيشه في حربه إسبانيا أرض القوط (٦٦) . ولا تناقض بين تلك الروايات ، كما يبدو ذلك لأول وهلة ، فالذي حدث هو أنّ يليان فاوض موسى بن نُصَيْر أولاً ، لأنّه القائد العام في إفريقيّة ، فلما عاد موسى إلى القيروان أكمل يليان مفاوضاته مع طارق بن زياد ، لأنه قائد المنطقة القريبة منه والمسئول عن المنطقة والمخوّل من القائد العام موسى بن نصير لاكمال المفاوضات . وقد كان طارق رجلاً سياسياً بحق بعيد النظر ، فصادق يليان ليستعين به على إخضاع مَن تحت سلطانه من البربر ، وهم كثيرون »(٦٧) .

(٦٣) . فجر الأندلس (٥٤) .

(٦٤) . راجع ابن الأثير (٢١٣/٤) والبيان المغرب (٦/٢) ، وانظر : أخبار مجموعة (٥) وفتح الأندلس (٣ -) .

(٦٥) . النويري (٢٥/٢٢ - ٢٦) والحميري (٧ - ٨) ونفح الطيب (٢٥١/١ - ٢٥٣) .

(٦٦) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وتاريخ افتتاح الأندلس (٧-٨) والبيان المغرب (٦/٢ - ٧) وابن خلدون (٢٠٣/٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١ - ٢٣٣) .

(٦٧) . فجر الأندلس (٥٤ - ٥٥) .

ومن الواضح أنّ السّلام الذي رفرفت راياته على المسلمين ويليان سببه المباشر، انقطاع المدد من إسبانيا بعد رحيل غيطشة وتولى لذريق ، ذلك المدد الذي أعانه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين . فلما انقطع المدد لانشغال لذريق عن يليان بالاضطرابات الداخلية ، كما سيرد تفصيل ذلك ، أصبح يليان ضعيفاً أمام المسلمين وأصبح ثباته في سبتة تجاه تفوّق المسلمين وانتشار الاسلام في البربر انتشاراً واسعاً صعباً للغاية ، لذلك فاوض موسى وطارقا ، وقام السّلام بين يليان والمسلمين، وأصبح التعاون بين الجانبين ممكناً وقائماً .

وسبب إقدام يليان المباشر على عرض تعاونه في فتح الأندلس قائم على أساس أنّ لذريق اعتدى على شرف ابنة يليان ، فحقد يليان على لذريق وأقسم على الانتقام منه (٦٨) .

ويرى أكثر المؤرخين العرب ، أنّ السبب الرئيس لفتح الأندلس ، هو قصّة ابنة يليان التي اغتصبها الملك لذريق واعتدى على شرفها قسرا ، ولكنّ بعض المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم قسم من المستشرقين ، يرون بأنّ قصّة ابنة يوليان بي بلاط طليطلة محض أسطورة ليس لها أساس من الواقع ، وقد شايعهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين (٦٩) . وهناك مايسوِّغ التّشكيك في هذه القصّة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين ، والهدف من هذا التشكيك واضح ومفهوم ، ولكن متابعة المؤرخين العرب والمسلمين للأجانب في هذا

(٦٨) . مجمل القصة ، أن يليان أرسل ابنته إلى بلاط لذريق لتتعلم وتتثقف مع بنات الملك ، وقد سحر جمالها الملك الذي حاول أن ينال منها ، فقاومته ورفضت ، فلجأ الى العنف واغتصبها رغم ارادتها ، انظر التفاصيل في : أخبار مجموعة (٥) وابن الأثير (٤/٥٦٠ – ٥٦١) والنويري (٢٢ – ٢٥ – ٢٦) والحميري (٧) ونفح الطيب (١/٢٥١–٢٥٣).

(٦٩) . قارن : Saavedra'pp, 58 - 59 وفجر الأندلس (٥٩ – ٦٠) ومحمود علي مكي – ملحمة آخر ملوك القوط – المجلة (٣٠ – ٣٥) – العدد ٧٤ – ١٩٦٣ ومحمد عبدالله عنان – دولة الاسلام في الأندلس (١/٣٥ – ٣٧) والفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٠) .

التشكيك في هدفه غير واضح ولا مفهوم ، ومن المعروف أنّ مؤرخي الأجانب شككوا في وجود شخصيّة يليان وذهبوا إلى أنّه شخصيّة أسطوريّة خلقها خيال العرب ، كما ذكرنا قبل قليل ، فتابعهم في هذا التشكيك قسم من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً وعلى غير هدى وبصيرة . حتى إذا حقّق قسم من المؤرخين الغربيين شخصيّة يليان ، وأثبتوا وجودها فعلاً ، عاد المقلدون إلى متابعة الغربيين من جديد ، فكانوا في كلتا الحالتين مقلّدين ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص .

وقصّة ابنة يليان تنتظر مَن يحقّق وقوعها من المؤرخين الغربيين لتصبح حقيقة بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير . ولا أرى أنّ تلك القصة لا يمكن حدوثها ، وبخاصة في تلك الأيام التي اتّسمت بالانحراف الذي أصبح قاعدة في القوط ، وبالاستقامة التي أصبحت استثناءاً فيهم ، كما أنّ ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرض ابنته غصبا ، كما أنّ ذكرها في المصادر المعتمدة يوثّق حدوثها ويؤيّد وقوعها ، ولا عبرة بالمصادر التي لم تتطرّق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى ، إذ لو كانوا لايصدّقونها لأبدوا رأيهم حولها ، ولكنهم لم يفعلوا (٧٠) ، ومثل هذه القصة تكرّرت قديماً في محيط الواقع ولا تزال تتكرر ، وأكثرنا سمع أمثالها ، فلماذا نكذّبها ، ونكذّب قصة ابنة يليان لأنّ مصادرها المعتمد عربيّة إسلامية ؟ !

ولست مع الذين يُشككون في هذه القصة ، ولكنني لا أراها السبب الرئيس لتعاون يليان مع المسلمين ، بل السبب الرئيس هو أنّه كان يتلقى الامددات عَدداً وعُدَداً من إسبانيا في عهد غيطشة (٧١) ، ولكن عندما جاء لذريق

---

(٧٠) . البلاذري (٢٣٠ – ٢٣١) برواية الواقدي ، والبيان المغرب (٦/٢) برواية الواقدي و (٤/٢) برواية عريب بن سعد ، وابن الشباط (١٠٥ – ١٠٦) برواية عريب بن شعد.

(٧١) . اخبار مجموعة (٤) .

الى العرش ، وبسبب مشاكله الداخليّة، توقف عن مساعدة يليان، فاستاء يليان من هذا التوقف ، وبدأ بالتعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد على القوط في إسبانيا ، خاصة بعدما شعر بقوة المسلمين المتنامية في المنطقة ، وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجاً .

ويمكن أن نلخّص أسباب فتح الأندلس بثلاثة أسباب رئيسة : الأول ، نشر الاسلام واعلاء كلمة الله في الأرض . إنّ الفاتحين حملوا الاسلام الى الناس بالفتح ، ولم يحملوا الناس بالفتح على الاسلام .

والثاني ، ترصين الفتح الأسلامي في شمالى إفريقيّة بعامة ، وفي منطقتي طنجة وسبتة بخاصة ، وذلك بفتح الأندلس ، فكما كانت منطقتا طنجة وسبتة تعتبران الخط الدفاعي الأمامي عن الأندلس ، فانّ الأندلس تعتبر الخط الدفاعي الأمامي للدفاع عن منطقتى طنجة وسبتة . وقد رأينا كيف قاومت سبتة المسلمين الفاتحين مقاومة عنيفة ، وثبتت تجاه محاولاتهم المتكرّرة لفتحها ، بفضل الأمدادات التي كانت تردها بحراً من القوط في إسبانيا ، فلما تخلّى القوط عن تزويدها بالأمدادات صالحت المسلمين أو استسلمت لهم على أصح تعبير ، لأنها عجزت عن مقاومتهم .

إنّ وجود قوّات معادية قويّة في الأندلس ، خطر على الفاتحين وعلى مصير الفتح وبخاصة في منطقتي طنجة وسبتة ، لذلك بادر المسلمون بالتعرّض بالقوط في الأندلس وفتح هذه البلاد ، والهجوم هو أجدى وسيلة للدفاع .

والثالث ، هو معاونة يوليان للمسلمين وتعاونه معهم في الفتح ، وتشجيعهم عليه وحثّهم على إنجازه ، فقد سهّل يليان على المسلمين الفتح بدون شك ؛ ولكنّهم كانوا يُقْدِمون عليه حتى لو لم يتعاون معهم يليان ولم يعاونهم ، فذ لك كان قدرهم في تلك الأيام .

ب ـ الاستطلاع :

بدأ موسى بن نصير استشارته للخلافة في دمشق ، وكان الخليفة حينذاك هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ ـ ٩٦ هـ) بعد اتصالاته بيليان ، أو قبل اتّصالات يليان بموسى . وقد تردّدت الخلافة باديءَ الأمر بالموافقة على القيام بمثل هذه العمليّة الكبيرة ، خوفاً على المسلمين من ركوب البحر ، ومن مصاعب القتال بحراً وبرّاً ، وهي تعلم أنّ خبرة العرب المسلمين في فنون القتال البحري قليلة جداً ، وربما كان يدور في خلدها وصف عمرو بن العاص للبحر في رسالته إلى عمر بن الخطّاب رضى الله عنه التي جاء فيها : « إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلاّ السمّاء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرّك أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قِلّةً ، والشكّ كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق . . . . . » . . . . .

ولكنّ موسى بن نُصَيْر ، أقنع الخليفة الوليد بن عبد الملك بالأمر ، فتمّ الاتّفاق على أن يسبق الفتح اختبار مواقع الانزال بالسرايا الاستطلاعيّة .

وأرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجريّة (٧١٠ م) سرية استطلاعيّة إلى جنوبي الأندلس ، مكوّنة من خمسمائة مجاهد ، منهم مئة فارس والباقي مُشاة ، بقيادة طَريف بن مالك الملقّب بأبي زُرْعَة ، وهو مسلم من البربر (٧٢) .

وعبر هذا الجيش الزُّقاق ، والزُّقاق اسم يطلق أحياناً على المضيق بين الأندلس وشمالي إفريقيّة (٧٣) ، من سبتة ، بسفن يُليان أو غيره ، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما Jsla de Las Palomas في الجانب الاسباني ، وعُرفت

(٧٢) . نفح الطيب (١٦٠/١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣) والروض المعطار (٨ و١٢٧) والبيان المغرب (٥/٢) ، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٥) .

(٧٣) . تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط ، والروض المعطار (٨٣ و١٢٧) ومقدمة ابن خلدون (٤٢٧/١) ونفح الطيب (١٢٧/١ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢) .

هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القـائد جزيرة طَريف(٧٤) (Tarifa) . ومن ذلك الموقع ، الذي اتخذه طريف قاعدة أمامية متقدّمة لعملياته الحربية ، قام طريف وسريته الاستطلاعيّة القتاليّة ، بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الجنوبي الأندلسي بارشاد يليان ، وخفّت قوّة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعون المسلمين ، كما قامت تلك القوة بحراسة موقع إنزال المسلمين في أرض الأندلس ، للاستفادة منه في مرحلة العودة من غارتهم الى قاعدتهم الرئيسة على البر الافريقي في منطقة طنجة ، وكانت نتيجة الغارة الاستطلاعية التي قادها طريف ، أنّ المسلمين غنموا مغانم كثيرة وسبياً عديداً ، وقوبلوا بالاكرام والترحيب ، وشهدوا كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، وعادوا في أمنٍ وسلام ، وقصّ قائدهم على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفتح ، وجدّ في أهبة الفتح ، كما تشجّع موسى وأخذ يستعدّ لارسال حملة عظيمة تقوم بالفتح المستدام (٧٥) .

لقد كانت مهمة سرية طريف ، مهمة استطلاعية ، هدفها الحصول على المعلومات عن طبيعة الأرض ، والسكان وأساليب قتالهم ودرجة ضراوتهم ، وتفاصيل قياداتهم ومبلغ الثقة المتبادلة بين القيادة والسكان ، ومبلغ حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم ، وكان لقيام طريف بعدة غارات في المنطقة دون أن يلاقي أية مقاومة (٧٦) نتيجة مهمّة واحدة ، هي عدم حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم ، وهي نتيجة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطط الفتح وبالنسبة للمسلمين الفاتحين .

---

(٧٤) . دولة الاسلام في الأندلس (٤٠/١) وفجر الأندلس (٦٧) ، وانظر الفتح والاستقرار العربي والاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٢) .

(٧٥) . Saavedra. op. cit. pp, 64,

(٧٦) . أخبار مجموعة (٦) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٥) وذكر بلاد الأندلس(٨٤) وابن الأثير (٥٦١/٤) والبيان المغرب (٥/٢) والنويري (٢٦/٢٢) ونفح الطيب (١٦٠/١) و (٢٥٣/١ - ٢٥٤) .

ولكن مهمّة سرية طريف الاستطلاعية ، لا تقتصر على هذه الناحية حسب ، بل تتعدّاها الى استطلاع حقيقة نوايا يليان ومن يشايعه تجاه السُّلطة القائمة في الأندلس والمتمثلة بالملك لذريق ، وحقيقة نواياه ومَنْ يشايعه تجاه المسلمين الفاتحين ، وقد أثبتت مهمة سرية طريف الاستطلاعية ، أنّ يليان ومَنْ يشايعه يحقدون على لذريق ولا يتأخرون عن التشبّث بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه ، وأنهم من أجل التنفيس عن حقدهم عملياً ، يضعون كلّ طاقاتهم المادية والمعنوية للتعاون مع المسلمين في ميدان القتال ومعاونتهم . وكان التأكد من تلك النوايا ، ضرورياً لاستكمال الاعداد للفتح ، وقد تأكد لموسى وطارق ، أنّ يليان ومَن يشايعه صادقون في معاونتهم وتعاونهم مع المسلمين الفاتحين ، وأنّ عرضهم التعاون والمعاونة ليس خدعة ، بل حقيقة لا غبار عليها .

وقد وصفت المصادر العربية هـذه العملية ، فذكرت أنّ موسى بن نُصَيْر كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك بالذي دعاه إليه يُلْيَان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خضها بالسَّرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . وراجعه ، أنّه ليس ببحر زخّار ، إنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه . فكتب إليه : وإن كان ، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذاك رجلاً من مواليه اسمـه طريف ، يُكنىّ : أبا زُرعه ، في أربعمائة رجل معه مئة فرس ، سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل في جزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء ، التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم : « جزيرة طريف ، لنزوله بها » (٧٧) .

وهذا مثال لحرص المسؤولين يومئذ ، قادة وخلفاء ، على أرواح المسلمين ، وقد أدى طريف ومَن معه واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام .

---

(٧٧) . نفح الطيب (٢٥٣/١) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الأعيان لا بن خلكان(٣٢٠/٥) ، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٦) .

٢ ـ الفتح :

أ ـ الخطة العامّة :

جهّز موسى بن نُصَيْر جيشاً تعداده سبعة آلاف جندي من البربر ، ليس فيهم من العرب المسلمين إلاّ القليل (٧٨) ، وينتمي البربر في هذا الجيش إلى قبيلة مَصْمُوْدَة وغيرها من القبائل البريريّة مثل جراوة ، ومطغرة ، ومكناسة ، ومَدْيُوْنَة (٧٩) ، وضمّ الجيش سبعمائة مقاتل من السودان (٨٠) ، ويمكن أن يكون هؤلاء السودان من المتطوّعة الذين اعتنقوا الاسلام ، فكان لهم دور كبير في مساعدة طارق في الفتح ، لأنّ قتالهم كان قتال المجاهدين الصادقين لا قتال المجنّدين المرتزقة الذين جُلبوا إلى ميدان القتال قسراً .

وعبر طارق بجيشه البحر تباعاً من سبتة في سفن يليان التجارية (٨١) ، وكان عبوره من سبتة بسبب رغبة طارق في إيجاد مكان ملائم للانزال على الشاطىء الاسباني في منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة ، ولكنّ طارقاً تخلّى عن الانزال في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع إنزال قوّاته ، فأبحر منه ليلاً إلى مكانٍ وعرٍ من الشاطىء . وقد حاول تسهيل عمليّة الانزال (الابرار) ، باستخدام المجاذيف والبراذع الخاصة بالسيول ، التي أُلقيت على الصخور لتلافي خطرها ، وبهذه الطريقة تمكّن طارق من الانزال المفاجيء من غير أن يراه أحد من العدو على الشاطىء (٨٢) .

---

(٧٨) . الروض المعطار (٩) ونفح الطيب (١/٢٣١ و ٢٣٩ و ٢٥٤) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٠) .

(٧٩) . ومصمودة من البرانس ، وجراوة من زناتة التي هي من البتر ، ومطغرة من البتر أيضا ، ومكناسة من البتر ايضاً ، وكذلك مديونة ، انظر ما جاء حول مشاركة هذه القبائل البربرية في جيش طارق الفاتح في : عبيدالله بن صالح (تحقيق بروفنسال ص (٢٢٤) وعبيدالله بن صالح (المخطوط) ص (٢٨) وابن خلدون (٦/٢٣٩ و ٢٥٦ و٢٦٥ و٤٦٢) ، وانظر : الفتح والا ستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس(١٦٢).

(٨٠) . ذكر بلا د الأندلس (٨٤) رقم ٨٥ ج وفتح الأندلس (٨٥) .

(٨١) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٦) ، وقارنه Gayangos. vol. 1. pp. 519 - 520

(٨٢) . ابن الكردبوس (٤٦) وانظر البيان المغرب (٢/٩) .

وقد نُفذّت عملية الانزال في الليل ، واستغرق الانزال أكثر من ليلة واحدة ، بسبب قلة المراكب ، التي كانت دائبة على نقل الرجال بين الشاطئين إلى أن تمّ إنزال جيش طارق بسلام على أرض إسبانيا . ويقول بعض المؤرخين : إنّ طارقاً كان آخر مَن عبر إلى إسبانيا (٨٣) ، ويقول آخرون إنه أبحر في اللّيل مع أوّل جماعة ، وإنه أخفى نفسه في الجبل حتى الليلة التالية ، حيث أرسل المراكب مرة أخرى لتعود ببقية رجاله (٨٤) ، وعلى ذلك فيكون طارق قاد فعلاً المجموعة الأولى من قوّاته إلى الشاطيء الاسباني ، ولكن ما إن هبطت هذه المجموعة بسلام ، حتى عاد بالمراكب إلى سبتة ، لكي يشرف على نقل بقـــية رجاله بنفسه ، ومن ثم أبحر مع المجموعة الأخيرة من الرجال .

وتمّ الانزال على صخرة تسمى : جبل كالبي (Mons Calpe) التي أتخذت اسم طارق منـــذ ذلك اليوم ، فأصبحت تسمى : بجبل طارق ، وجرى الانزال يوم الأثنين الخامس من شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٨٥) (٢٧ نيسان – أبريل – سنة ٧١١ م) .

وهكذا يكون القائد الحـق ، يُشرف على إنزال الوجبة الأولى ، لأنّ إنزالها يكون من أخطر الوجبات ، ولأنّها تكون رأس الجسر للقوات التي يجري إنزالها بالتعاقب ، فيشرف القائد على إنزال سائر الوجبات ، حتى يكون مع وجبة الانزال الأخيرة ، ليطمئن أنّ قوّاته أكملت عبورها ، وجرى إنزالها في المكان المناسب ، ويتأكد من عدم تخلّف فرد من أفراد قوّاته عن عن العبور لسبب من الأسباب .

ولكن ، لماذا استعان طارق بسفن يُليان التجاريّة ؟

---

(٨٣) . البيان المغرب (٦/٢) ونفح الطيب (٢٥٤/١) .
(٨٤) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٥ – ٢٠٦) .
(٨٥) . نفح الطيب (١١٩/١) والبيان المغرب (٦/٢) .

« كان يليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك ، ويظنون أنّ المراكب تختلف بالتجّار » (٨٦) ، وهذا يدلّ على أنّ طارقاً استعان بسفن يليان التجارية ، لأنه أراد أن يحيط عمليّة الانزال بالسرية التامّة ،وذلك باستعمال مراكب تجارية لا تعود للمسلمين ، لا لأنّ المسلمين لا يمتلكون السُّفَن الكافية .

ومن الواضح ، أنّ المسلمين حينذاك ، كانوا يمتلكون سفنهم الخاصة بهم ، فقد كان اهتمام المسلمين بصناعة السُّفن مبكراً ، إذ أدركوا حاجتهم إليها ، فأقاموا عدّة دور لصناعة السُّفن ، مثل دار الصناعة في تونُس التي التي أقامها حَسّان بن النُّعمان الغَسّانيّ (٨٧) ، بل إنّ معركة كاملة خاضها المسلمون على شواطىء تونس سنة ثلاث وثلاثين الهجريّة أو أربع وثلاثين الهجريةوهي معركة ذات السّواري ، استخدموا فيها أسطولهم المكون من مئتي سفينة (٨٨) .

وكان قد مضى على فتح الشمال الافريقي عقود من السنين قبل فتح الأندلس ، وكانت شواطئه الطويلة الممتدة على البحر الأبيض المتوسط (بحر الرُّوم) والأطلسي ،تجعل المسلمين بحاجةإلى السُّفن. وهو أمر لايتم بالاعارة والاستئجار . وقد سبق للمسلمين نشاط بحريّ انطلق من شمالى إفريقية ، ففي سنة ست وأربعين الهجريّة ، وجّه معاوية بن حُدَيج (٨٩) والي إفريقية أُسطولاً عدّته

---

(٨٦) . البيان المغرب (٦/٢) .

(٨٧) . انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١٧٦/١ – ٢٢٠) ، وانظر كتاب : وصف افريقية (٣٨ – ٣٩) حول إنشاء دار الصناعة في تونس ، وانظر كذلك : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لا بن أبي دينار (١٥ و ٣٥) .

(٨٨) . انظر الاستيعاب (٩١٩/٣) والعبر (٣٤/١) ، وانظر تاريخ علماء الأندلس لا بن الفرضى (٣١١/١) .

(٨٩) . انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٩/١ – ١٣٦) .

مئتا سفينة لفتح جزيرة صِقِلّية (٩٠) . وفي سنة ست وثمانين الهجرية وجّه موسى بن نُصَير حملة على صِقِلِّيَّة محمولة على مراكب صُنعت في تونس(٩١).

وكل ذلك يؤكد أنّ للمسلمين دور صناعتهم ، ولكن استعانة طارق في عبور قوّاته بسفن يليان كان لتأمين مباغتة القوط الكاملة ، لا عن حاجة للسفن ، وبعد انكشاف حركة إنزال المسلمين الأولى ، نُقل المدد الى طارق بالسفن الاسلامية : « وكان موسى منذ وجّه طارق لوجهه ، قد أخذ في عمل السُّفن ، حتى صار عنده منها عدّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً » (٩٢) .

وجرى تجمّع جيش طارق بعد اكمال إنزاله في الطرف الاسباني ، على جبل طارق عُرف فيما بعد باسم : جبل طارق (٩٣) (Gibraltar) ، كما عرف به المضيق باسم : مضيق جبل طارق ، وبكل اللغات ، وهذا ذكرى لطارق وعماية إنزال جيشه ، وتخايد لبطولته .

ومنذ بدأ إنزال جيش طارق على السّاحل الأندلسيّ ، بدأ رجال طارق بتحصين موضع الانزال ، الذي أصبح منطقة التجمع لجيشه في جبل طارق ، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات (٩٤) ، « فلما حصلوا في الجبل ، بنوا سوراً على أنفسهم يسمى : سور العرب ... الخ » (٩٥) ، فشكّك بعض المؤرخين الغربيين وتابعهم في هذا التّشكيك بعض المؤرخين العرب المسلمين

(٩٠) . البيان المغرب (١٦/١ – ١٧) .
(٩١) . البيان المغرب (٤٢/١) .
(٩٢) . نفح الطيب (٢٥٧/١) .
(٩٣) . نفح الطيب (١٤٥/١ – ١٤٦ و ١٥٩ – ١٦٠) .
(٩٤) . ذكر بلاد الأندلس (٨٤ – ٨٥) والبيان المغرب (٩/٢) وابن خلدون (٢٤٤) ونفح الطيب (٢٣٢/١) .
(٩٥) . البيان المغرب (٩/٢) .

تقليدا ، فقالوا من جملة ما قالوا : « ومن غير المحتمل . أن يكون طارق قد حصّن منطقة تجمّع جيشه في جبل طارق ، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات ، لأنّ هدفه الأول لم يكن البقاء على الصخرة ، بل فتح المناطق المجاورة للجزيرة الخضراء ، والسيطرة على الجانب الاسباني من المضيق . لحماية تجهيزاته ومواصلاتها في شمالي إفريقية » ، وهذا هو مجمل ما جاء في تشكيكهم أو اعتراضهم . على ما ورد في المصادر العربية المعتمدة حول التحصين .

ومن الواضح ، أنّ المؤرخين الغربيين الذين اعترضوا على ما سجّلته المصادر العربية ، حول تحصين منطقة تجمّع جيش طارق في جبل طارق ، وشايعهم على اعتراضهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين ، لم يفهموا المعنى الدقيق للتحصين الذي سجّلته المصادر العربية المعتمدة ، فحفر الخنادق في المواضع الممكن حفرها هو تحصين ، فاذا كانت الأرض صخرية كما هو الحال في منطقة جبل طارق ، فانّ التحصين يتمّ باقامة جدار من الصخور المتيسّرة والأحجار . يحتمي وراءه المقاتلون من سهام العدو المصوّبة نحوهم ليلاً أو نهاراً . وإقامة الجدار للحماية بالصخور والأحجار هو تحصين أيضاً ، وهو ما قصدته المصادر العربية المعتمدة ، لا إقامة الحصون المشيدة ، كما فهمها بعض المؤرخين الغربيين ومَنْ شايعهم من المؤرخين العرب والمسلمين . والمدنيّون الذين لم ينتسبوا للسلك العسكري في يوم من الأيام معذورون في سوء فهمهم لتعبير : التحصين (٩٦) ، كما ينبغي .

(٩٦) . في الكليات العسكرية ، يتلقى الطلاب درساً مهما هو درس : التحصين ، يتدربون فيه على حفر انواع الخنادق ، في الأماكن الممكن حفرها ، واقامة المنعات من الحجارة والصخور وزرع الربايا في المناطق الجبلية ، ثم يعملون في التمارين التعبوية على تحصين مواقعهم بالخنادق او الصخور والحجارة فور الوصول اليها ، حتى ولو كان بقاؤهم فيها مدة قليلة جداً ، وعملهم في الحفر وإقامة المنعات والربايا الصخرية ، يسمى . التحصين ، وهو من اول واجباتهم بعد وصولهم الى اي موقع من المواقع . وفي اللغة ، حصن المكان : منع .

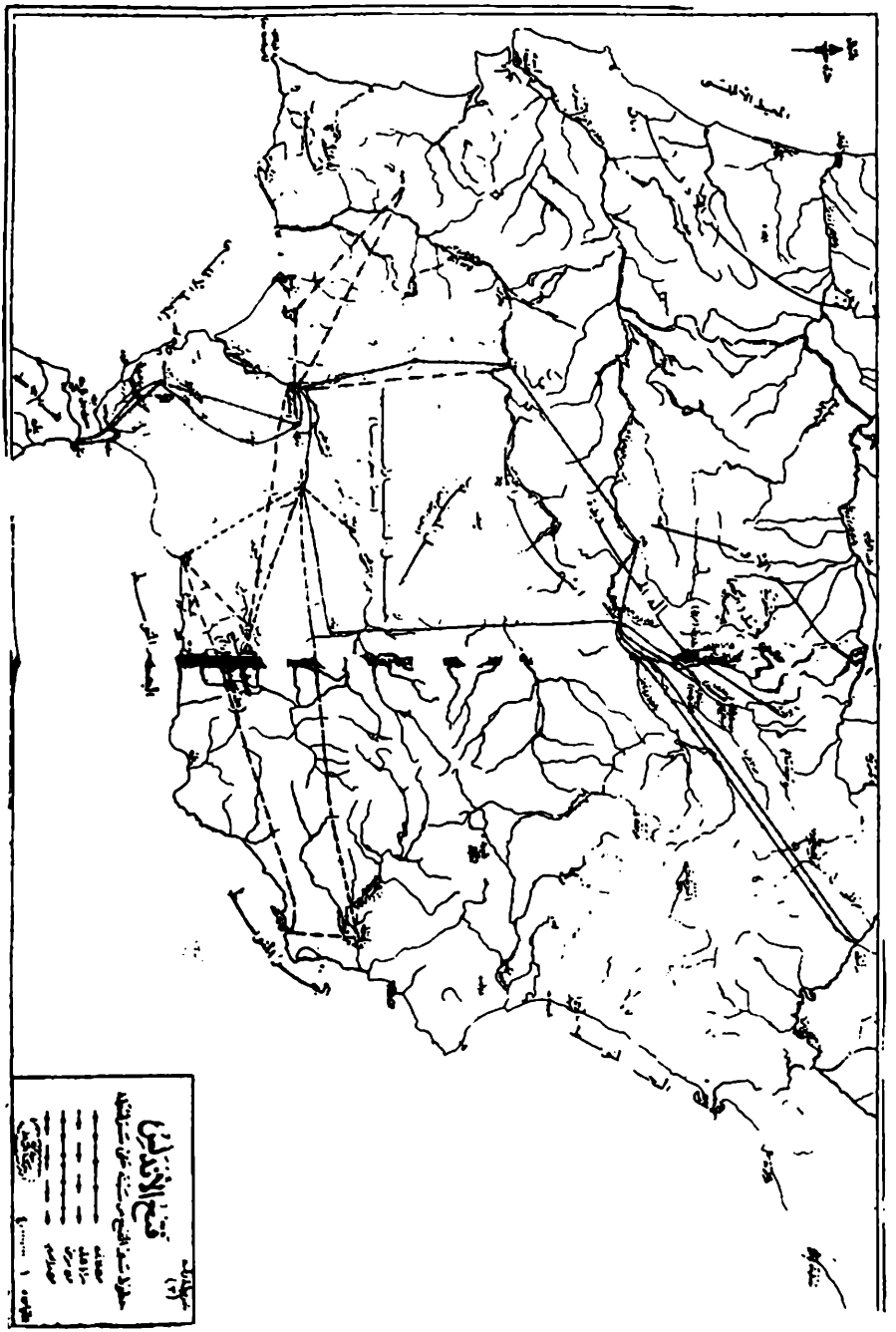

إنّ من واجب كلّ مقاتل ، أن يحصّن موقعه ، حتى ولو بقي فيه ساعة من نهار أو ليل ، ومن واجب القائد ورجاله ألاّ يغفلوا عن تحصين مواقعهم ، استعداداً لأسوأ الاحتمالات ، وذلك للدفاع تجاه تعرّض معادٍ محتمل ، فهذا هو دأب القائد الجيِّد والمقاتلين الجيِّدين .

وهكذا أصبح لجيش طارق رأس جسر على برّ الأندلس ، ومنطقة تجمع في جبل طارق ، أصبحت بعد تحصينها قاعدة أماميّة متقدّمة ، يستند أليها ذلك الجيش ، في انطلاقه نحو أهدافه لفتح الأندلس ، تحقيقاً لخطة الفتح المرسومة .

(ب) المناوشات التمهيديّة :

لم يكد طارق يكمل تحصين منطقة تجمّع جنده في جبل طارق ، حتى أصبحت تلك المنطقة قاعدة أمامية متقدمة أَمِيْنَة للمسلمين ، صالحة للانطلاق منها للفتح . وحين فرغ من تحصين قاعدته الأمامية المتقدمة ، أرسل أحد قادته المرءوسين . وهو عبدالرحمن بن أبي عامر المعافري على رأس فرقة مختارة من رجاله . سارت بحذاء الساحل شمالاً بغرب . فاستولت على مدينة من مدن الأندلس اسمها : قَرْطاجَنَّة الجزيرة (٩٧) (قرطاية Carteya Torrede Cartagena) ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء (٩٨) (Algeciras) في مقابل جبل طارق وهناك وقعت مناوشات مع قوات القوط ، انتصر فيها المسلمون . ويذكر صاحب تحفة الأنفس . أنّ قتالاً جرى عند أو قرب جبل طارق . « فاقتتلوا ثلاثة أيام . وكان على القوط تُدْمير ، استخلفه

(٩٧) . قرطاجنة الجزيرة : مدينة بالأندلس ، تعرف بقرطاجنة الخلفاء ، قريبة من آلش ، من أعمال تدمير ، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بافريقية ؛ انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٧) والمشترك وضعاً (٤٣٢) ، وانظر ما جاء حول هذا الفتح في البيان المغرب (٣/٢) .

(٩٨) . الجزيرة الخضراء مدينة أمام سبتة من بر الأندلس الجنوبي ، وهي مدينة طيبة نزهة توسطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ – ١٧٤) .

لذريق ملك القوط ، وكان قد كتب إلى لذريق ليعلمه بأنّ قوماً لا يُدري أهم من أهل الأرض أم من أهل السّماء ، قد وطئوا إلى بلادنا ، وقد لقيتهم ، فلتنهض إليّ بنفسك »(٩٩) . وتُدمير هو تيودومير القوطي ، عامل لذريق على تلك المنطقة من الأندلس وقائدها ، وكانت بامرته قوات محلية تابعة لعامل لذريق وبقيادته ، فكان الاصطدام الأول بين المسلمين وقوات القوط ، اصطداماً على نطاق الجيش المحلي أو القوات المحلية لمنطقة جنوبي الأندلس ، ولم يكن اصطداماً على نطاق القوّة الضاربة للملك القوطيّ . وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كلّه بيد المسلمين فعهد طارق الى يليان ومن معه من الجند ، حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم متوقع ،وأمن المسلمون من أن يعبر عدوّ إلى مواقعهم عند جبل طارق ، فيهدّد تلك المواقع وطريق مواصلاتهم التي تربطهم بقواعدهم في إفريقية (١٠٠)

وسارع لذريق بأرسال ما تيسر له من قوات خفيفة بقيادة ابن أخيه بَنْج (١٠١) (Banj) وهو (بالاسبانية Sancho أو Bancho) ولكن طارقا قضى على تلك القوّات ،ولم ينج من جندها إلاّ واحد اسمه : بِلّياسِن (Williesindo Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بَنْبُلُوْنَة (١٠٢)، وأخبره نزول المسلمين البلاد ، فسارع لذريق نحو الجنوب ، حتى دخل قُرْطُبَة (١٠٣) ، ثم أخذ يستعد للحركة جنوباً للقاء المسلمين (١٠٤) . ومن الواضح أنّ بلياسن

(٩٩) . تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) ص (٧٠) – علي بن عبدالرحمن بن هذيل .

(١٠٠) . Saavedra, pp . 65 .

(١٠١) . البيان المغرب (١٠/٢) .

(١٠٢) . بنبلونة : مدينة أندلسية ، في غربي الأندلس ، خلف جبل الشارة ، انظر تقويم البلدان (١٨٠ – ١٨١) .

(١٠٣) . قرطبة : مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلا دها ، كانت عاصمة لملكها وقصبتها، انظر– التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٥٢/٧) وتقويم البلدان (١٧٤ - ١٧٥) وآثار البلا د وأخبار العباد (٥٥٢) .

(١٠٤) . نفح الطيب (١٤٩/١) .

حمل إلى لذريق أخبار إبادة قوات ابن أخيه بنج الخفيفة ، وأنّ الذي حمل إليه أخبار إنزال العرب في الأندلس هو تدمير .

وأقصد بالقوات الخفيفة ، القوات التي تتحرك بسرعة على ظهور الخيل ، ومن المحتمل أنّ تلك القوات جُمِّعت من القوات القوطية المحلية ، وقد أصبحت خيولهم غنائم للمسلمين (١٠٥) .

والذي يبدو ، انّ قرار لذريق السريع ، بعد علمه بانزال المسلمين في جبل طارق ، وفتحهم جنوبي إسبانيا بالكامل تقريباً ، وتوقعه أن ينطلقوا شمالاً لاستكمال الفتح ، هو أنه أمر ابن أخيه بنج ، أن يلتقي بالمسلمين على عجل ، ويحاول إيقاف تقدمهم في الأندلس أولا ، وإجلاءهم عن الساحل الذي فتحوه ، ليعودوا من حيث أتوا إلى قواعدهم الأمامية في سبتة وطنجة . ولتحقيق النّصر على المسلمين ، عمد بنج إلى حشد قواته المحلية الخفيفة من الخيّالة ، وأسرع نحو الجنوب لمواجهة المسلمين الفاتحين . دون أن يعرف أنّ المسلمين كانوا في مواضع حصينة لا يسهل التغلب عليها . وفي معنويات عالية تساعدهم على التغلب بسهولة وسرعة على عدوّهم ، ولهم قيادة واعية تحسب لكلّ شيء حسابه وتضع الحلول المناسبة لما قد يصادفها من معضلات ، ولهم جنود من المجاهدين الذين يتوخّون إحدى الحُسْنَيين : النصر أو الشهادة . ولديهم مخابرات نشطة ترصد لهم تحركات العدو وسكناته ، وتجعلهم يجاهدون وهم في النور لا في الظلام .

وكان نتيجة المعركة التصادفية التي خاضها بنج على رأس قواته المرتجلة ، نكبة قاصمة للظهر عليه وعلى قواته ، فلم ينج منهم إلاّ واحد نجا باعجوبة ، ليحمل أنباء الكارثة التي حلّت ببنج وقواته إلى الملك لذريق .

---

(١٠٥) . الرازي – نشر سافيدرا (١٤٩ – ١٥٠) والبيان المغرب (٨/٢) .

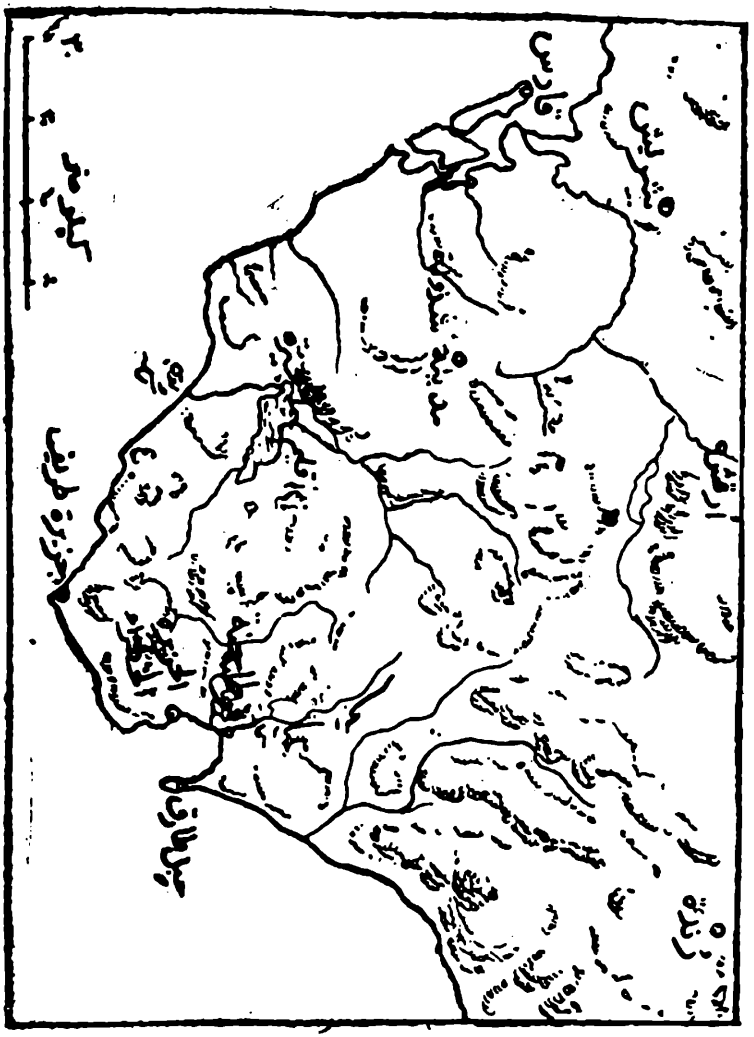

والسبب في عدم إرسال لذريق قوات كافية من القوات التي بامرته ، هو بعد تلك القوات عن مسرح العمليّات ، حيث كانت في أقصى الشمال ، ومسرح العمليّات في أقصى الجنوب ، وتنقُّل القوات من الشمال إلى الجنوب يحتاج إلى وقت طويل ، يؤدي إلى ترصين مواضع المسلمين وتقويتها ، في وقت يكون فيه القوط بحاجة ماسة إلى السّرعة ، للتغلب على المسلمين الفاتحين قبل أن يرسخوا اقدامهم في الأندلس ، لذلك كان قرار لذريق السريع ، هو تكليف ابن أخيه بقيادة قوات خفيفة ، للتغلب على الفاتحين بسرعة قبل فوات الأوان ، فأخطأ لذريق في إصداره مثل هذا القرار السريع ، لأنه لم يكن على علم يقين بأنّ المسلمين جاءوا إلى الأندلس فاتحين ليبقوا فيها ، ولم يأتوا إليها بغارة للمغانم ثم يرحلوا عنها . كما أخطأ بنج بعدم اطّلاعه على واقع المسلمين الفاتحين مادياً ومعنوياً ، وبعدم كفاية قواته عدداً وعُدَداً للنهوض بواجبها كما ينبغي ، في تحقيق النصر على المسلمين الفاتحين .

وقد كان لمرحلة : المناوشات ، من مراحل فتح الأندلس ، نتائج عظيمة على الطرفين المتحاربين : المسلمين ، والقوط ، فقد ارتفعت معنويات المسلمين ، نتيجة لانتصاراتهم على القوط ، وبقيادتهم الواعية القادرة . كما أصبح للمسلمين قاعدة متقدّمة أمامية محصّنة ومحروسة ، يمكن الاعتماد عليها والانطلاق منها للفتح . كما ازدادت معلومات المسلمين الفاتحين عن قيادة عدوّهم وقواتهم ، وطبيعة بلادهم ، ونقاط ضعفهم وقوتهم ، فاستغلوا هذه المعلومات المفيدة للغاية في الجهاد . وهذه النتائج الثلاث مجتمعة ، أدت إلى إصرار المسلمين قيادة وجنوداً على استكمال الفتح حتى يشمل الأندلس بحدودها الطبيعية المعروفة ويتعدّاها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

أما بالنسبة للقوط ، فقد انهارت معنوياتهم ، نتيجة لهزائمهم المتوالية أمام المسلمين ، ولقيادتهم الضعيفة العاجزة ، ولخسارة جزء من بلادهم لعجزهم عن حمايتها والدفاع عنها . كما ارتبكت المعلومات عن المسلمين لدى القوط ،

فمنهم مَن يظن أنّ الفاتحين سيرحلون عن بلاد الأندلس ، ومنهم مَن يظن أنّهم جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا ، ومنهم وهم الأكثرية من اختلطت عليهم الأمور ، فشُغل بالجدل عن الاستعداد للقتال وعن مباشرة القتال .

وكان لهذه النتائج على الطرفين ، تأثير حاسم في الفتح ، كما سنجد ذلك في مراحل الفتوح المقبلة .

٣ ـ معركة وادي بَرْباط(١٠٦) أو وادى لكة(١٠٧)
المعركة الحاسمة في فتح الأندلس

(أ) الموقف العام :

اولاً : موقف القوْط :

كان لذريق عند معرفته بالنكبة التي حلّت بقوات ابن أخيه بنج ، مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك (١٠٨) في منطقة جبال البرانس (١٠٩) التي تفصل بين الأندلس وفرنسا ، يحارب بعض الخوارج عليه في الولايات الشمالية للأندلس ، وهذا ما تنص عليه المصادر العربية المعتمدة ، وهو ما أرجّحه لأنّه منطقيّ معقول ، أو أنّ لذريق كان يصدّ هجوماً فرنسياً على نافار (Navarre) ، كما يزعم بعض المستشرقين(١١٠)، إذ لو كان هذا الزّعم حقّاً ، لما استطاع لذريق الانسحاب من تلك الجبهة بيسر وسرعة ، وهي مهدّدة باعتداء خارجي لايقل خطراً عن المسلمين ،

---

(١٠٦) . وادي برباط : واد بالأندلس من أعمال مدينة شذونة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ١٠٣) .

(١٠٧) . وادي لكة : اسمه في البيان المغرب (١٠/٢) : وادي الطين ، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ورد اسمه : وادي أم حكيم ، وهو وادي برباط .

(١٠٨) . ابن حبيب (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وفتح الأندلس (٦) وابن الأثير (٥٦٢/٤) والنويري (٢٧/٢٢) ونفح الطيب (٢٣١/١ و ٢٥٥) والأمامة والسياسة (٧٤/٢-٧٥) .

(١٠٩) . البرانس : جبال تفصل إسبانيا عن فرنسا ، انظر التفاصيل في : الموسوعة العربية الميسرة (٣٣٩) .

(١١٠) . Saavedra. pp. 64 - 65

إن لم يكن أكثر خطراً منهم ، بموجب التفكير السّائد على الملك وحاشيته وقادته حينذاك ، إذ كانوا يعتقدون أنّ المسلمين يقومون بغارة من أجل الغنائم ، بينما الفرنسيون يهدفـون ان يحتلوا بلادهم إذا انتصروا عليهم ، فليس من المعقول ترك الجبهة لهم ، خالية من المقاومة ، يسرحون فيها ويمرحون كما يشاءون .

وكان لذريق ملكاً شجاعاً وافراً المقدرة والحزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والسّخط (١١١) .

وعلى كلّ حال ، عندما وصلت أنباء طارق إلى لذريق ، ترك في الحال ما كان يجابهه في الشمال من مشاكل ، وزحف نحو الجنوب ، مرسلاً الرّسل إلى أتباعه ليوافوه في قرطبة (١١٢) ، وقد كتب من هناك إلى أفراد أسرة غيطشة (Witiza) وإلى القـوط الآخرين لينظمّوا إليـه في قتال العدو المشترك . وخشية من دخول قرطبة ، عسكر أبناء غيطشة وأتباعهم عبر نهر شقندة (Secunda) (١١٣) .

وتمّت المصالحة بين لذريق وأبناء غيطشة ، فعهد لذريق بقيادة ميمنة جيشه إلى سشبرت (Sisbert) والميسـرة إلى (أبـه (Oppa) ، وهذان الاثنان كما يقول مؤلّـف كتاب : أخبار مجموعة ، هما من أبناء غيطشة (١١٤) ،

---

(١١١) . Cardonmigid. pp. 62

(١١٢) . فتح الأندلس (٦) وابن الشباط (١٠٦) برواية عريب ، وابن الكردبوس (٤٧) والحميري (٩) ونفح الطيب (١/٢٥٦) .

(١١٣) . ابن القوطية (٣) والحميري (١٠٤) ونفح الطيب (١/٢٦٥ – ٢٥٧) ، وشقندة هي حي الربض جنوبي قرطبة في الضفة الاخرى من الوادي الكبير (Guadalquivir) وكان هذا الربض يعرف باسم : شقندة (Seeunda) معرب عن اللاتيني ، انظر كتاب ، جغرافية الأندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك للبكري– تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (١٣٩) – بيروت – ١٣٨٧ هـ ط ١ .

(١١٤) . أخبار مجموعة (٨) ، وقارن فتح الأندلس (٦) .

ويقال أيضاً بأنهما ابنا أخيكا (Egica) وليس لغيطشة (١١٥) ، وهذا هو الصواب ، لأنّ ابنى غيطشة اللذين بقيا في الأندلس ، كما ذكرنا هما أرطباس (Artavasdcs) والمند (Almunde) ، وأسماء أبناء غيطشة معروفة لدينا ، وليس بينهم أسماء مَن توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق ، وإذا ما كانوا في سنّ لا يسمح لهما أن يتوليا الحكم في سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠ م)، فانهّ من غير المحتمل أن يكون لذريق قد عهد إليهما بالقيادة في سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٧١١ م) . فلا يبقى إلاّ أن يكون اللّذان توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق ، هما ابنى أخيكا ، وغيطشة هو ابن أخيكا ، فيكون قائدا الميمنة والميسرة أخوى غيطشة لا ابنيه ، ويكونان عمىّ أبناء غيطشة ، ويكون لذريق قد استعان بأفراد من العائلة المالكة السابقة في قيادته ، لتوحيد الجبهة الداخلية ، وإذابة الخلافات المحلية ، وحشد جهود القوط كافةً لحرب المسلمين . وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الدّاهم بالاتحاد، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم ، واجتمع يومئذ للقوط جيش تقدّره بعض الروايات بمائة ألف مقاتل (١١٦) ، وأقل تقدير له أربعون ألفاً (١١٧) ، ولا يمكن معرفة تعداده اليوم بالضبط ، فهو على كلّ حال بين هذين التّعدادين، أي نحو سبعين ألفاً ، كما جرى تقديره في بعض المصادر العربية المعتمدة (١١٨). ويبدو أنّ الجيش القوطيّ كان يشعر بقوّته ، وكان متأكداً من إمكان تغلّبه

(١١٥) . ابن القوطية (٢–٣) ، وقارن : فجر الأندلس (٧٣) و Livermore, pp. 291 .

(١١٦) . ابن الأثير (٢١٤/٤) ونفح الطيب (١٢٠/١) ، ويقدره في مكان آخر بسبعين ألفاً ، انظر نفح الطيب (١١٢/١) ، ويأخذ جيبون بهذه الرواية ، فيقدر جنس القوط بتسعين ألفاً او مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون) ، ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين الفاً فقط ، انظر ابن خلدون (١١٧/٤) .

(١١٧) . ابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١) .

(١١٨) . نفح الطيب (١١٢/١)

على المسلمين ، إلى درجة أنهم أعدّوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين ، كما يذكر ابن الكردبوس : « فلما انتهى خبره إلى لذريق ، خرج إلى لقائه في مائة ألف فارس ، ومعهم العَجَل تحمل الأموال والكِساء ، وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات ، وعليه قُبَّة مكلّلة بالدرّ والياقوت ، وعلى جسمه حلّة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الأبريسم ، ومعه أعداد دواب لاتحمل غير الحبال لكتاف الأسرى ، إذ لم يَشُكّ في أخذهم » (١١٩) .

ومن الواضح أنّه يمكن أن نستنتج من هذا الوصف لقوّات القوط ، أنّ لذريق وهو القائد العام كان مترفاً جداً ، ولا يمكن أن يقاتل المترف كما يقاتل الرجال ، لأنّه يحرص على ترفه أكثر مما يحرص على الموت . كما أنّ الجيش القوطي كان على حالة إداريّة متميّزة ، يحمل الأموال والكساء ، وتحمله الخيول ، ولا تنقصه مادة إداريّة تؤثّر في نشاطه القتالي . كما يمكن استنتاج أنّ القوط قد أعجبتهم أنفسهم ، فضمنوا لهم النصر على المسلمين ، والأعجاب بالنفس قبل نشوب القتال ، لا يؤدي إلى خير أبدا . ويبدو أنّ إعداد الحبال للأسرى قبل المعركة ، كان محاولة من لذريق لرفع معنويات القوط ، مما يدلّ على أنّ معنوياتهم قبل الاشتباك لم تكن عالية ، ولا نصر لقوات لا تتحلّ بالمعنويات العالية .

ثانياً : موقف المسلمين :

لمّا علم طارق بأخبار حشود القوط الكثيفة لقتال المسلمين ، كتب إلى موسى بن نُصَيْر يستنجده ، فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف مقاتل ، بقيادة طَريف بن مالك (١٢٠) ، حملتهم سفن صنعها المسلمون ، ولعلّ يُلْيان قدّم التسهيلات لعبور هذا المدد إلى الأندلس ، فأصبح تعداد الجيش الاسلامي في الأندلس اثنى عشرة ألف مقاتل ، جلّهم من البربر المسلمين (١٢١).

(١١٩) . تاريخ الأندلس (٤٧) وانظر الأمامة والسياسة (٧٤/٢) .
(١٢٠) . العبر (٢٥٤/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١) .
(١٢١) . نفح الطيب (٢٣١/١/١ و٢٣٩) .

وفي ذلك يقول صاحب : أخبار مجموعة ، إنّ طارقاً ، « كتب إلى موسى يستمدّه ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وأنّه قد زحف إلى ملك الأندلس بما لا طاقة له به . وكان موسى مذ وجّه طارقاً أخذ في عمل السُّفن ، حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف، فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشرة ألفاً » (١٢٢) .

ويبدو أنّ نيّة طارق ، كانت السّير مباشرةً إلى قرطبة عاصمة بيطي(١٢٣) (بيتيس) (Baetis) ، لأنّه تقدّم بحذاء السّاحل حتى أدرك جزيرة طَريف ، ومن ثَمّ اتّجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع ، ومرّ بين جبلي (سيليا دل بابا) و (سييرا دل رِتين) ، واقترب من بحيرة الخندق (لاخاندا) الواسعة التي تحصر بينها وبين سييرا دل رتين سهلاً متّسعاً بعض الاتّساع حصيناً ، لانّ البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى، واستمرّ حتى أدرك نُهير البرباط الذي يخترق بحيرة الخندق (لا خاندا) ، وكانت بهذا الموضع في تلك الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ، يسميها العرب : بِكّه ، ولهذا سمّوا هذا النُّهير : وادي بكّه ، وحرّفه بعضهم إلى : لِكّه أو وادي لِكّه ، ونقله الأسبان خطأ ، فسمّوه : وادي لِيتّه (١٢٤) .

وهنا عرف طارق من عيونه المنتشرة في كلّ مكان ، أنّ لذريق سائر إليه بجنده ، وأنّه وصل إلى قُرطبة واستقرّ فيها قليلاً لاستكمال حشد جيشه ، ثمّ تقدّم جنوبيّها ، وأقام معسكره عند شَذُوْنَة (١٢٥) (Medinasidonia

(١٢٢) . أخبار مجموعة (٧) .

(١٢٣) . بيطى : هو الاسم القديم لنهر الوادي الكبير Gvadɪgivurvir ، انظر جغرافية الأندلس واوروبا (٥٨) .

(١٢٤) . أقرب ما قيل ، إن وادي لكه ، تحريف للفظ (Lago - Lacus) أي البحيرة، والمقصود هذا بحيرة الخندق ، انظر التفاصيل في : فجر الأندلس (٧١) الهامش (١) .

(١٢٥) شذونة : مدينة بالأندلس ، تتصل نواحيها بنواحي موزور ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ٢٤٤) . وفي ابن خلدون (١١٧/٤) ، أنّ الجيشين التقوا بفحص شريش ، والصحيح انّها وقعت في فحص شذونة ، لانّ شريش بعيدة عن ميدان المعركة .

واستعدّ لقبول المعركة في سهل البرباط، على مقربة من قرية(Casas Viejas) الحالية (١٢٦) .

وفي هذا الموضع الذي وصل إليه طارق ، وصل المدد الذي تعداده خمسة آلاف مقاتل إلى طارق ، وهو المدد الذي بعث به موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس ، فقويت بالمدد نفس طارق ونفوس من معه . والغالب أنّ قسماً كبيراً من المدد كان من الفرسان ، لأنّ المصادر تحدّثنا أنّ قوّة طارق الأولى كانت كلّها من الرجّالة ، بي حين سنرى للمسلمين قوّة من الخيالة في المعركة الحاسمة (١٢٧). ويبدو أنّ تقدم المسلمين الموّفق في الأندلس إلى هذه اللّحظة ، قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق ، فانضمّ منهم الى المسلمين نفر كبير أعانوهم بالقوة والرأي (١٢٨) . وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه ، فبدأت نفوسهم تحدّثهم لانتهاز الفرصة للانقلاب عليه بي حالة اشتباكه بالمسلمين ، ويقال : إنّ سشبرت وأبّه أخوى غيطشة ، كانا على رأس هذا الفريق الذي عزم على الخيانة ، وإنّهما انتظرا اللّحظة المواتية ليتخليا عن لذريق ، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة (١٢٩) .

ويبدو أنّ لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أنّ نفراً من جنده يدبّر له الخيانة ، فأحبّ قبل أن يلقي المسلمين . أن يتعرف على مالديهم

(١٢٦) فجر الأندلس (٧١ ــ ٧٢) .

(١٢٧) يذهب ساقدرا ــ اعتماداً على المصادر المسيحيّة ــ الى انّ عدد جيش طارق بلغ قبل المعركة الحاسمة خمسة وعشرين ألفاً ، بسبب من انضمّ اليهم من النصارى من انصار غيطشة واعداء لذريق من اهل البلاد . إذ ان من انضم اليه من النصارى يبلغ ثلاثة عشر ألفاً ، وهذا مستبعد . بيد انّ بضعة آلاف من النصارى انضموا الى المسلمين ، انظر فجر الأندلس (٧٢) الهامش (١) .

(١٢٨) البيان المغرب (١١/٢) ونفح الطيب (١٦٢/١) ، ويفهم مما ورد في نفح الطيب ، أن الذي دبر الخيانة ، لم يكن أبناء غيطشه وأخواه فقط ، وإنما نفر عظيم من القوط كانوا غضاباً على لذريق .

(١٢٩) افتتاح الأندلس (٣) والبيان المغرب (٨/٢) ونفح الطيب (١٦٣/١) وأخبار مجموعة (٦) .

من القوّة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً شديداً ، فولّت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال المسلمين وما هم عليه من الحميّة والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه (١٣٠) .

ولا بدّ من التوّقف قليلاً ، لمناقشة التحاق القوط النصارى بالجيش الاسلامي قبل المعركة الحاسمة ، ومعاونتهم للمسلمين وتعاونهم معهم في تلك المعركة ، على جيش لذريق من القوط النصارى ، في مثل ذلك الموقف الحرج الخطير للغاية ، في بلاد هي بلاد القوط النصارى وليست بلاد الجيش الأسلامي ، بحجة عداوتهم للذريق ، هذا الالتحاق القوطيّ بالمسلمين يمكن تصديقه بحجة أنّ الملتحقين هم أعداء لذريق ، وعدو عدوّك صديقك كما يقول المثل العربي المشهور ، ولكن ليس من المعقول أنّ طارقاً اشركهم في القتال .

ومن الواضح ، أنه يمكن أن نستنتج من هذا العرض لموقف المسلمين ، أنّ طارقاً كان كأحد رجاله مأكلاً ومشرباً وسكنا ، فلم يكن مترفاً ، بل كانت حياته أقرب إلى التّقشف منها إلى التّرف . وكان حذراً كلّ الحذر يقظاً كلّ اليقظة ، يعرف عدوّه وحركاته وسكناته ، ولاتخفى عليه من أمره خافية . كان يُعدّ لكل أمرٍ عدّته ولكلّ معضلة حلّها ، لاينام ولا ينيم . وكان المسلمون في حالة إدارية أقل بكثير من حالة الجيش القوطي ، ولكنّهم اعتادوا على الحياة القاسية ولم يعرفوا الترف والرخاء ، فكانت حالتهم الادارية غير المتميّزة ليست مشكلة بالنسبة إليهم . ولم يكن المسلمون قد أعجبتهم كثرتهم ، فهم يعلمون أنّ عدوّهم متفوّق عليهم عَدَداً وعُدَدا ، ولكنّهم متفوّقون على عدوّهم بقيادتهم ومعنوياتهم العالية . ولم يهتم المسلمون بالمظاهر الخارجية والدعاية ، كما اهتم القوط بها ، فلم يعدّوا الحبال لربط الأسرى ، ولم يتباهوا بالمظاهر الخلابّة ، بل كانوا في نفسية متواضعة لاتتبدل في حالي النصر والاندحار .

(١٣٠) نفح الطيب (١/١٦٣) .

لقد كان تعداد جيش طارق اثنى عشر ألفاً(١٣١) من المجاهدين الصادقين، وأنضم إليهم يليان في قوّة صغيرة من صحبه وأتباعه (١٣٢) ، وهؤلاء هم الذين شهدوا المعركة الحاسمة مع المسلمين على القوط . أما أعداء لذريق الذين انضموا إلى المسلمين قُبيل تلك المعركة نكاية بلذريق ، فمن الصعب تصديق أنّ المسلمين أشركوهم بالمعركة الحاسمة معهم على لذريق ، لاحتمال وجود مندسّين وعملاء بينهم يُظهرون غير ما يُبطنون ، فلا يمكن الاعتماد على مثل هؤلاء في الحرب ، إذ قد ينقلبون على المسلمين في وقت من الاوقات الخطرة في الحرب، أو يثبطون عزائم المسلمين المجاهدين ، أو يهربون فيسرى الهرب بالعدوى بين المقاتلين ، أو ينقلون أسرار المسلمين إلى أعدائهم ، ومثل هذه الاحتمالات قائمة بالنسبة للقوط النصارى غير المجربين من المسلمين ولم يحظوا بالثقة الكاملة بهم . ومن المحتمل أنّ المسلمين استقبلوا أعداء لذريق في مواضع آمنة ، واكتفوا بتحييدهم بالنسبة للذريق ، ونقلوهم إلى الخلف بعيداً عن الجبهة ، انتظاراً لنتيجة المعركة المتوقعة ، وهم بعيدون عن أخطار الحرب ، آمنون على أنفسهم وعلى أموالهم وأملاكهم ، وحسب المسلمين منهم أنّهم لم يحاربوا في صفوف لذريق ، ولم ينصروه في ميادين القتال ، وكان حيادهم نصراً لا ريب فيه للمسلمين .

٤ ـ خطبة طارق وحرق السفن

(أ) الخطبة :

اولاً الرّفض :

كان ممن احتار في خطبة طارق المشهورة ، الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، فقال : « تلك الخطبة الطنّانة ، التي لو حاول مثلها قسّ بن ساعدة أو سَحْبان وائل ، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها ، ولقد كنتُ أفكرّ مليّاً في

(١٣١) نفح الطيب (٢٣١/١ ، و ٢٣٩) وأخبار مجموعة (٧) .
(١٣٢) دولة الأسلام في الأندلس (٤٢) .

أمر هذه الخطبة وأقول بي نفسي . . هذا لغز من ألغاز التاريخ ، لا ينحلّ معنـاه بالسّهـولة . . . . » ، وحقيقة هـذا اللّغز ، لدى أمير البيـان ، أنّ طارقاً بربريّ ، والخطبة تُعد من روائع الخطب العربيّة ، ولم يستطع التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ، وقد حاول ولكنّه لم يسترح لمحاولاته ، وأخيراً زال تردّده عندما جزم الأستاذ عبد الله كنّون بأنّ هذه الخطبة من جملة انطباع البربر بالطابع العربي البحت (١٣٣) .

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة لطارق الأستاذ عبد الله عنّان ، فيقول : « على أنّه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فانّ معظم المؤرخين المسلمين ، ولا سيما المتقدمين منهم ، لايُشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري ، وهم من أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ ولم تُشر إليها المصادر الأندلسيّة الأولى ، ولم يُشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أنّ كثيراً من قادة الغزوات الاسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان ، ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها ، ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق ، وهو بربريّ لم يكن عريقاً في الاسلام والعروبة . والظّاهر أنّها من إنشاء بعض المتأخّرين ، صاغها على لسان طارق ، مع مراعاة ظروف المكان والزمان » (١٣٤) .

كما يرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق الدكتور أحمـد هيكل ، ويبني شكّه على : أنّ طارقاً بربريّ حديث عهد بالاسلام والعربية ، لأنّه لم يرتبط بموسى بن نُصَيْر إلاّ عندما ولى هذا الأخير قيادة المغرب سنة تسع وثمانين

(١٣٣) دكتور عبد السلام الهراس – دعوة الحق – العدد الخامس – السنة الحادية عشرة –١٣٨٨هـ– ص (١٢٦) ، وانظر : النبوغ المغربي (١/٢٢ – ٢٣) .

(١٣٤) دولة الأسلام في الأندلس (٤٧) .

الهجرية ، وبين هذا التاريخ وتاريخ الفتح في سنة اثنتين وتسعين الهجريّة مدّة وجيزة ، يُستبعَد معها أن يجيد طارق العربية بحيث تسمح له بالقاء الخطب ونظم الشّعر .

كما أنّ المصادر الأولى ، عربيةٌ وأندلسيّةٌ ، قد سكتت عن هذه الخطبة ، ولم تُشر إليها ، ولا تنصّ عليها سوى المصادر المتأخرة كثيراً عن الفتح ، مثل نفح الطيب .

ثمّ إنّ أسلوب الخطبة بما فيه من الصحة والزُّخرف ، لاينسّب إلى عصر طارق الأدبيّ ، وإنما إلى عصرٍ متأخرٍ جداً عن القرن الأوّل ، ولذلك يرى أنّ هذه الخطبة ، هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسيّ ، وربما إلى ما بعد ذلك .

كما أنّ ورود هذه العبارة في الخطبة : « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عربانا » ، مما يزيد من حظّ الشك ويقوي الارتياب ، لأنّ الجنود لم يكونوا عربا ، بل كانوا برابرة .

واعتماداً على هذه الأدلّة الأربعة ، يخلص الدكتور أحمد هيكل ، إلى حكم ، يرجّح فيه أن تكون الخطبة وضعت على لسان طارق من بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن الفتح ، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسيّ ، وربما العصر المملوكيّ .

ويرى بعد ذلك ، أنّ طارقاً قد يكون خطب جنوده ، وقد يكون قد تغنّى انتصاراته مفاخراً مباهياً ، ولكنّ المعقول أن يكون فعل ذلك بلغته البربريّة ، التي كان يجيدها ، والذي كان جنوده يفهمونها (١٣٥) .

---

(١٣٥) انظر كتابة : الأدب الأندلسي (٨٠ – ٨٣) نقلا عن مقال مجلة دعوة الحق – العدد الخامس (١٢٦ – ١٢٧) .

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، الدكتور عبد الرحمن على الحجيّ ، ويبني شكّه على : أنّ تعرّض القليل جداً من مؤرخينا الأندلسيين المتأخرين دون المتقدّمين – للخطبة ، قد يشير إلى عدم شيوعها وعدم معرفة المؤرخين لها ، وهو أمر يمحو أويقلّل الثقة بواقعيتها . كما لم تذكر المصادر الأندلسيّة ، لاسيّما المبكّرة منها ، هذه الخطبة . ولم تكن الخطبة بما فيها من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري) ، وغير متوقّع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة . والمعاني التي تناولتها الخطبة لاتتلائم والروح الاسلامي العالية ، التي توفرّت لدى الفاتحين ، ومقدار حبّهم للاسلام وإعلاء كلمته ، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك . . . . . (١٣٦) .

ويلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ، ويلاحظ بها التناقض في المعاني ، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تأريخيّة ، كاستعمال : « اليونان » التي ربما جاء ذكرها للسّجع ، فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الرُّوم (١٣٧) ، وكذلك : (العلوج والعجم ، أو المشركين والكفار(١٣٨) ، وليس لدينا نصّ يحتوي على مثل هذا الاستعمال . ثمّ : « وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين . . . . »(١٣٩) ، فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد .

وكان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلاميّة أخرى ، تناسب المقام ، كالمعهود (١٤٠) ، ثمّ إنّ طارقاً وأكثر الجيش

---

(١٣٦) تاريخ افتتاح الأندلس (١٣٨ – ١٣٩) .
(١٣٧) انظر : نفح الطيب (١/٢٦٤ و ٢٦٩) والأحاطة (١ / ١٠٠) .
(١٣٨) انظر : نفح الطيب (١/٢٥٩ و ٢٦١ و ٢٦٣ و ٢٧٠ و ٢٧١) والبيان المغرب(١/١٤).
(١٣٩) ابن خلكان (٥ / ٣٢١ – ٣٢٢) ونفح الطيب (١/٢٤٠) .
(١٤٠) انظر : مثلا : تحفة الأنفس (٢٩ – ٣٣) .

كانوا من البربر ، مما يجعل من المناسب إن يخاطبهم بلغتهم ، إذ من المتوقع ألاّ تكون لغتهم العربية قد وصلت الى مستوى عال (١٤١) . كما أن وضوح تنافي الجُمل الأخيرة من الخطبة : « ولم يعوزكم بطل عاقل » ، « واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ..... » ، وأسلوب الفتح وحقيقته وأهدافه ، فضلا عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقّتها التنظيميّة ومطالبها الفنيّة ، دليل أنّ طارقا لم يقل هذه الخطبة .

ويرى بعد ذلك ، أن كلّ ما تقدم، لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام ، وأنه خطب جنده ، يحثهم على الجهاد (١٤٢) .

ويرتاب الدكتور احمد بسّام السّاعي في نسبة هذه الخطبة الى طارق بن زياد ، فيرى : أنّ أسلوبها ليس أسلوب ذلك العصر – سنة اثنتين وتسعين الهجرّية – أي أواخر القرن الأول الهجري ، فالسجع الذي انتظم كثيرا في عباراتها ، والذي كان يتتالى على مدى خمس جُمل أحياناً ، لم يعرفه العرب في أساليب تلك المدة الزمنية . ثمّ إنّ طارق بن زياد ، كان أول عهده بالاسلام والعربية عام تسع وثمانين للهجرة ، وهو العام الذي استولى فيه موسى بن نُصير على المغرب ، فاستولى الاسلام على قلوب أهلها ، واستولت لغته العربيّة على ألسنتهم ، فهل يُعقل أن يكون قد اكتسب في هذه السنوات الثلاث اللسان العربي الفصيح والملكة البلاغيّة الرفيعة التي تُؤهّله لالقاء مثل هذه الخطبة التي احتلّت تلك المكانة الرفيعة بين خطب فصحاء العرب ؟ أما العربان الذينّ ذكرهم طارق في خطبته : « وقد انتخبكم الوليد من الأبطال عربانا » ، فلم يكونوا في حقيقة الأمر ، وتبعاً للمصادر التاريخيّة الموثوقة ، عربانا ، بل كان معظم أفراد الجيش الذي جهز منه طارق حملته من برابرة المغرب . وإذن ، فلابد من

(١٤١) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٨) .
(١٤٢) التاريخ الأندلسي (٥٨ – ٦١) .

الوقوف وقفة شكّ كبير أمام هذا التنافر بين الواقع التاريخي بجوانبه المتعددة ، وواقع الخطبة التي بين أيدينا .

ومما يزيد هذا الشك رسوخاً ، تلك الحقيقة التاريخية التي عُرفت عن الجيوش الاسلامية عامة – ولاسيما في تلك القرون الأولى من حملات الاسلام – وهي أنّ هذه الجيوش لم تكن تغزو للغزو والغنائم التي ينالها الغزاة عامة ، بل كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة .

ثم يقول : « ..... ومع ذلك ، فنحن لا نملك أن نجزم بأنّها ليست لطارق ابن زياد حقا » (١٤٣) .

وكان بطرس البستاني ، قد شكّك في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فهو يرى أنّ طارقاً فارسيّ الأصل متعرِّب لا بربريّ حديث العهد بالعربية والاسلام وأنّه كان حسن الكلام فما هو تأثير خطبته في جيش من البرابرة يجهل العربية في مجموعة ، ولم يزل على طفولته في الدين الجديد ، تعنى فئة قليلة من العرب بتعليمه القرآن وفرائض الاسلام كما يتعلّمها كلّ شعب غريب إذا أسلم ، وكان يجهل العربية . ولا يبعد أن يكون فيه من البرابرة الذين لم يتركوا دينهم القديم ، وإنّما هم مرتزقة حاربوا مع المسلمين رغبة في الغزو والغنيمة .....

ومما يحمل على الشك في خطبة طارق قوله لجيشه : « وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك من الأبطال عربانا » ، فجمعُ العربان ليس من اللغة الفصحى ، ولا يصحّ أن ينطق به خطيب في صدر الاسلام ، ثمّ كيف يجعلهم عرباً وهم ... من البرابرة ، ليس فيهم إلاّ ثلاثمائة من العرب ؟ فلا يعقل أن يوجه بخطبته إلى الفئة القليلة دون السّواد الأعظم ، والبرابرة أحوج من العرب المسلمين إلى التّحضيض والأغراء .

---

(١٤٣) مجلة العربي الكويتية – العدد ٢٩٣ – نسيان (أبريل) ١٩٨٣ م – (٩٦ – ٩٧) .

ثم يقول : « فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة ..... ، فما ينبغي الركون إليها ولو أثبتها بعض المؤرخين » (١٤٤) .

تلك هي موجز أمثلة من آراء الرافضين من العرب المسلمين وغير المسلمين أيضاً ، ذكرناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، وهي في نقاطها الجوهرية تضرب على وتر واحد ، تكاد تتفق في المعاني وتختلف في الألفاظ .

ثانياً : القبول :

تصدّى الأستاذ عبدالله كنّون مفنّداً بعض أدلة الرافضين ، ومجمل ماذكره : أنّ طارقاً البربري ، نشأ في حضن العروبة والاسلام ، فأبوه هو الذي أسلم بدليل اسمه : « زياد » ، ولاشكّ أنّه كان من مسلمة الفتح المغربيّ الأول ، وانتقل إلى المشرق حيث نشأ ولده في كنف موسى بن نُصَيْر . ولا غرابة في نبوغ طارق البربري في العربيّة ، فقد نبغ فيها أمثاله كعكْرِمة البربري وسلمان الفارسيّ . وليس في الخطبة من الصنعة البيانية ما يمنع نسبتها لطارق ، أنّ بلاغتها في معانيها ، والمعـــاني ليست وقفاً على عربيّ ولا عجميّ .

ثم يضيف : نعم قد تكون الخطبة تعرّضت لبعض التّصرف بالزيادة أو النقصان من الرواة ، غير أن هذا لا يسوّغ نفي أصل الخطبة ، وليس بحجّة للتشكيك في نصّها الكامل (١٤٥) .

ويردّ الدكتور عبدالسلام الهرّاس على الدكتور أحمد هيكل فيذكر : أنّه لا يشاطر الدكتور هيكل في حكمه الذي بناه على حيثيات لا يعتمد البعض منها إلاّ على افتراضات ، والبعض الآخر يعتمد على أساس النص الوارد في : نفح الطيب . فكون طارق مثلا حديث عهد بالاسلام ، لم يتصل بموسى بن نُصير إلاّ عند تولية هذا قيادة المغرب سنة تسع وثمانين الهجريّة – أمر لا يمكن

(١٤٤) بطرس البستاني – معارك العرب (١/ ٥٥ – ٥٦) – بيروت – ١٩٤٤ م – ط ١ .
(١٤٥) النبوغ المغربي (١/٢٢ – ٢٣) ، نقلا عن مجلة : دعوة الحق – العدد الخامس (١٢٧) .

التّسليم به ، لأنّ طارقاً ابن لمسلم وهو زياد ، وحفيد لمسلم وهو عبدالله ، حسبما ذكره ابن عذاري في نسبه ، فله على الأقل أبوان في الاسلام ، وهكذا لم يعد هذا القائد البربري حديث عهد بالاسلام ، ولم تعد المدّة التي قضاها في الاسلام لا تتعدى ثلاث سنوات . وما لنا لا نفترض — وهو أقرب الى المعقول ، أنّ أباه وجدّه هو الذي كان في المشرق ؛ فنشأ الابن والحفيد في بيئة عربية صرف ، أتاحت له حذق لغتها والنبوغ فيها ، والفوز بثقة بلاط دمشق ليتولىّ مكانة مرموقة في الدولة الأموية ، مما أهّله لقيادة جيش الفتح . ثم إنّ أحداً من القدماء ، لم يقل بأن طارقاً خطبَ بالبربريّة ، أو نفى الخطبة بالعربية . أما كونها لم ترد إلاّ في المصادر المتأخرة كثيراً ، كنفح الطيب ، فليس الأمر كذلك ، إذ وردت في مصادر أقدم بكثير من عصر المقري ، فقد أوردها ابن خلكان وهو من القرن السابع الهجريّ ، ووردت في تحفة الأنفس لابن هذيل وهو من القرن الثامن الهجري ، وأهّم من هذا أن صاحب الامامة والسياسة قد أثبتها وهو من رجال القرن الثالث الهجري ، كما وردت قطعة منها في كل من : « ريحانة الألباب » ، للمراعيني (توفي ٥٧٠ هـ — ١١٦٨م) وكتاب : « استفتاح الأندلس » ، لعبدالملك بن حبيب (١٤٦) .

وقد أضاف الشيخ عبدالله كنّون إلى المصادر الخمسة التي ذكرت خطبة طارق في صفحاتها والتي ذكرها الدكتور عبدالسّلام الهرّاس مصدراً جديداً ، فذكر أنّه يضيف إلى هذه المصادر مصدراً آخر لا يقل عن : ابن خلكّان ، تثّبتاً وتحرّياً وثقة ، وهو من أهل القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين . الامام أبو بكر الطرطوشي ، صاحب كتاب : « سراج الملوك » . وقد ذكر خطبة طارق غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه ، وأورد طرفاً منها

(١٤٦) مجلة دعوة الحق — العدد الخامس (١٢٧ — ١٢٨).

في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور ، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها . (١٤٧) .

وأضاف الأستاذ عبدالعزيز الساوري مصدراً سابعاً إلى المصادر المذكورة ، هو كتاب صلة السِّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى في الفخر المحمّدي ، للمؤرخ التونسيّ محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري ، الذي عاش في القرن السابع الهجري ، وتوفى بمدينة توزر سنة إحدى وثمانين وستمائة الهجريّة (١٢٨٢ م) . فقد ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شك في صحّة نسبتها إليه (١٤٨) .

وأستطيع أن أذكر ، بعض ما يمكن أن يعتبر ردّاً علمياً على الرافضين نسبة خطبة طارق إليه ، فمن الواضح أنّ طارقاً لم يتصل بموسى بن نُصَير سنة تسع وثمانين الهجريّة ، بل لابدّ أن يكون اتّصاله به قبل ذلك ، فأبو طارق وجدّه مسلمان ، وقد عاش في بيئة إسلامية ، ومثل هذه البيئة لها صلة مباشرة قويّة بالعربيّة الفصحى تكلماً وتعلّما . وحتى في هـذه الأيام ، في القرن الخامس عشر الهجري لا نجد بيئة إسلامية شرقاً وغربا ، إلاّ وفيها مَنْ يُتقن العربية الفصحى ، فاذا أضفنا أنّ والد طارق وجدّه مسلمان ، في أيام الفتوح والاتصال المباشر بين الأقوام والأمم ، تحت ظلّ الاسلام ، فلا نستبعد أنّ والد طارق وجدّه انتقلا إلى بلاد العرب ، وكان معهما طارق ، فأتقن العربية الفصحى ، وحتى لو لم ينتقل إلى المشرق ، فأنّ إسلامه يشجعه على قراءة القرآن وتفهّم الحديث وأقوال الدعاة العرب المسلمين ، فكثير

(١٤٧) سراج الملك (١٥٤) – المطبعة الأزهرية – القاهرة ، انظر مجلة : دعوة الحق – العددان السادس والسابع السنة الحادية عشرة – صفر ١٣٨٨ هـ – ص (١١١) .

(١٤٨) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط – نصان جديدان – ص (١٥٤ – ١٥٥) – تحقيق د . أحمد مختار العبادي – معهد الدراسات الاسلامية – مدريد – (١٩٧١م) نقلا عن مجلة : دعوة الحق – العدد (٢٢٥) – ص (١٠٠ – ١٠١) .

ممن نراهم في الهند وباكستان والاتحاد السوفيتي مثلا ، ممن يتقنون العربية الفصحى ، لم ينتقلوا الى البلاد العربية ، بل تعلّموا العربية الفصحى في عقر دارهم ، وأذكر أنني كنت في زيارة رسمية للباكستان سنة (١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤م) ، فصلّيتُ الجمعة في مسجد كراجي الكبير ، وكان خطيب الجامع يخطب بالعربية الفصحى ، ولم يخطب بالأوردية اللغة المحلية ، فقيل للخطيب : « لماذا لا تخطب بلغة قومك ؟ » ، فقال : « لا أخطب بغير لغة القرآن ولغة النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم » ، فما يدرينا أنّ طارقاً خطب بالعربية الفصحى في مثل ذلك الموقف العصيب ، الذي يكون فيه المرء أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وهو يوقن بأنّ النصر من عند الله ، فهو بهذه النيّة يخطب بهذه اللّغة تبرّكاً وتقرّباً إلى الله ورسوله .

وقد عملت في الجندية ردحاً طويلاً من الزمن ، وخطبت بالضباط والجنود في الوحدات الصغرى والكبرى بالتدريج ، حسب تقدمي رتبة ومنصباً . وكثيراً ما كانت الوحدة التي أقودها مؤلفة من غير العرب ، كالأكراد مثلا ، فكنت ألقي خطبتي بالعربية ، وأضع مع مَن لا يفهم العربية مَن يترجم لهم كلامي نصاً وروحاً ، وهذا ما فعله طارق حين خطب بالعربية الفصحى في رجاله البربر ، فلم ينس أن يجعل بينهم مَنْ ينقل إليهم كلماته ، وليس ذلك صعباً بل هو سهل ميسور .

وكانت الحماسة للاسلام في البربر عظيمة جداً ، وأكبر دليل على ذلك إنجازهم الرائع في الفتوح واستقتالهم في ميدان القتال ، والاستقتال عادة يكون من أجل العقيدة . والحماسة للعربية الفصحى متساوقة مع الحماسة للاسلام ، لأنّ العربية الفصحى لغة الدين الحنيف ، فلا يستغرب إقبال البربر على تعلم العربية الفصحى بحرص واندفاع ، ليتفهموا القرآن وتعاليم الدين ، وطالما رأينا مسلمين من غير العرب ، يفهمون العربية ولا يحسنون الكلام بها ، ومن الممكن أن يكون مسلمو البربر يومئذ كذلك .

ولا أدري إلى متى يبقى المؤرخون العرب والمسلمون ، يثقون بما يقوله الأجانب أكثر من ثقتهم بما يقوله أبناء أمّتهم ودينهم ؟

وفي دراستي لطارق بن زياد وفتح الأندلس ، وهي هذه الدراسة التي تقرأ في هذا البحث ، اكتشفت أنّ قسماً من مؤرخي الأجانب ادّعوا أنّ يليان شخصية أسطورية لا وجود لها في الواقع ، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب والمسلمين . وأخيراً جاء مَنْ يثبت ، أن يليان شخصية حقيقية لا مجال للشك ولا للتشكيك فيها ، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب أيضاً ، ورجع مَنْ بقي منهم على قيد الحياة عن متابعتهم الأولى !!!

ويزعم بعض مؤرخي الغرب من الأجانب ، أنّ قصة اعتداء لذريق ، على على عفاف ابنة يليان وأثر ذلك في يليان من ناحية التعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس ، قصة أسطورية لا نصيب لها في الواقع ، فتابعهم في ذلك كثير من مؤرخي العرب والمسلمين ، مع أن القصة لا يُستغرب حدوثها قديماً وحديثاً ، ولا أدري كيف يصدّق مؤرخو العرب والمسلمين تشكيك المؤرخين الأجانب ، ويكذّبون المصادر العربية الاسلامية المعتمدة دون مسوغ منطقي معقول .

بل لا أدري كيف يتابع قسم من مؤرخي العرب والمسلمين ، ويقتبسون مزاعم قسم من المؤرخين الأجانب ، وبخاصة ممن ثبت انحرافهم وتحريفهم وثبتت عداوتهم للعربية لغةً والاسلام دينا ، ولا يتابعون المؤرخين العرب والمسلمين ، فيتقبسون حقائقهم الثابتة ، وبخاصة ممن ثبتت استقامتهم وعدلهم ، وثبت إخلاصهم للعربية لغةً والاسلام دينا !!

والمؤرّخون العرب والمسلمون حقاً ، يرصدون مؤتمرات : إعادة كتابة التاريخ ، لقسم من البلاد العربية ، فلا يُدعى إلى تلك المؤتمرات غير المستشرقين المنحرفين المحرّفين المعروفين بعداوتهم للعربية لغةً والاسلام دينا ، وغير

المستغربين المقلّدين للمستشرقين ، من مؤرخي العرب والمسلمين الذين لا صلة لهم بالعربية لغةً والاسلام دينا ، وصلتهم بالمستشرقين المنحرفين المحرِّفين صلة عضويّة أنستهم مؤرخي العرب والمسلمين القُدامى والمحدثين .

والتقيت أحدهم في المجمع العلمي العراقي ، فسمعته يُباهي باصدار مؤتمرهم مجلّدات في التاريخ ، فقلت له : « لقد أضفتم مجلّدات جديدة إلى مجلّدات كايتاني ، فاتّقوا الله في العرب والمسلمين يا أبناء العرب والمسلمين ».

ومن المذهل حقاً ،أن نجد مَن يشايع المنحرفين من المستشرقين في انحرافهم من مؤرخي العرب والمسلمين ومَن يوافقهم منهم على تحريفهم ، يفخرون بالانحراف والتحريف ، ما دام قادماً من الأجنبي ، وكأن ذلك علامة من من علامات التحرّر وسمة من سمات الانطلاق ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

إنّني مع الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق ، على الذين يرفضون نسبتها إليه ، أو يشكّون في نسبتها إليه ، أو يشكّكون في نسبتها إليه ، لأنّ الأدلة مع مَن ينسبون هذه الخطبة لطارق ، على الذين يرفضونها . كما أعلم منزلة الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق صدقاً واستقامة وعلماً وتثبّتاً ، فما ينبغي رفض ما يقولون دون مسوِّغ ، وبخاصة إذا علمنا أنّ الذين شكّوا في تلك الخطبة او شكّكوا بها ابتداءاً من المؤرخين الأجانب ، ثم سرى شكّهم وتشكيكهم الى مؤرِّخي العرب المسلمين بحسن نيّة او بسوء نيّة ، فما ينبغي أن نصدِّق كلّ مستورد من الخارج . وإلاّ خسرنا كلّ شيء دون أن نربح شيئاً .

إنّ الاستعمار الفكري من أخطرّ أنواع الاستعمار ، ولم نفعل شيئاً إذا لم نطهرّ عقولنا ونفوسنا معاً منه إلى الأبد .

ثالثاً : في المصادر والمراجع :

١ ـ في المصادر :

نص ابن حبيب(١٤٩)

عبدالملك بن حبيب الألبيرى (ت ٢٣٨هـ)

في كتابه

استفتاح الأندلس

روى بعض أصول الخطبة المعروفة حالياً ، فقال : « فلما بلغ طارقاً دنوُّه منه ، قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم حضّ النّاس على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، ثم قال :

« أيّها الناس ، أين المفرّ ؟ والبحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ؟ فليس لكم والله إلاّ الصِّدق والصّبر ، ألا وإني عامدٌ إلى طاغيتهم بنفسي ، لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه » .

نصّ ابن قتيبة(١٥٠) (ت ٢٧٦هـ)

في كتابه

الامامة والسياسة(٢)

فلما بلغ طارقاً دنوُّه (أي لذريق) منهم ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط لهم في آمالهم ، ثمّ قال :

« أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، فليس ثمّ والله إلاّ الصدق والصبر ، فانّهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضرّ معهما قِلّة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل

---

(١٤٩) مجلة معهد الدراسات الأسلامية في مدريد (٥ / ٢٢٢) ـ (القسم الفرنجي) ، نقلا عن كتاب : التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن علي الحجي (٥٩) .

(١٥٠) هناك من يرى أن هذا الكتاب ليس لابن قتيبة ولكنه منسوب إليه .

والاختلاف والعجب كثرة . أيّها الناس ، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إنْ حملتُ فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيّبه حتى أخالطه أو أقتل دونه (١٥١) ، فان قُتلت فلاتهنوا ولا تحزنوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولّوا الدّبر لعدوّكم ، فتبدّدوا بين قتيل وأسير . وإيّاكم أن ترضوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلّة ، وما قد أُحلّ لكم من ثواب الشّهادة ، فإنّكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحملتي(١٥٢)» فحمل وحملوا .

نصّ ابي بكر(٢) الطرطوشيّ (ت ٥٢٠هـ)
في كتابه
سراج الملوك

ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق ، مسلّماً بها ، غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه . وأورد طرفاً منها ، وذلك في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور ، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها(١٥٣).

وهذا هو نصّ الخطبة في هذا الكتاب .

ولما عبر طارق مولى موسى بن نُصَيْر إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بافريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضراء ، وتحصّنوا في الجبل الذي يسمى اليوم : (جبل طارق) ، وهم في ألفٍ وتسعمائة رجل ، فطمعت

(١٥١) في الأصل : (وأقتل) ، وهو تصحيف .
(١٥٢) الأمامة والسياسة (٧٤/٢) – القاهرة – ١٣٧٧ هـ – ط ٢ .
(١٥٣) الأستاذ عبد الله كنون – مجلة دعوة الحق – العددان السادس والسابع – صفر ١٣٨٨ هـ – ص (١١١) .

الرُّوم فيهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، وكان على الرُّوم تدمير ، استخلفه لذريق ملك الرّوم ، وكان قد كتب إلى لذريق يُعلمه : أنّ قوماً لا ندري هم من الأرض أم من السّماء قد وصلوا إلى بلادنا ، وقد لقيتهم ، فانهض إليّ بنفسك . فأتاه لذريق في تسعين ألف عنان ، فلقيهم طارق وعلى خيله مُغيث الرُّومِيّ مولى الوليد بن عبدالملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشدّ قتال . فرأى طارق ما الناس فيه من الشدّة ، فقام فحضّهم على الصّبر ، ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط آمالهم ، ثمّ قال :

« أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، فليس إلاّ الصّبر منكم والنّصر من ربّكم . وأنا فاعل شيئاً ، فافعلوا كفعلي ، فو الله لأقصدنّ طاغيتهم ، فامّا أن أقتله ، وإما أن أُقتل دونه .. .... » (١٥٤) .

نصّ ابي محمّد بن ابراهيم « ابن خيرة » المراعيني الأشبيلي (ت ٥٦٤هـ) في كتابه ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب(١٥٥)

« ولما أجاز طارق البحر . وعظ أصحابه وأمرهم (١٥٦) وقال : « إنّكم بين عدوّين : بين أهل الكفر ، وبين البحر ، فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحا . وأحرق سفن الجواز ... فلما أشرف على جمعهم ، قال لأصحابه :

---

(١٥٤) سراج الملك (١٥٩) – المطبعة الأزهرية بالقاهرة ، نقلا عن مجلة دعوة الحق – العددان السادس والسابع ص (١١١) .

(١٥٥) مخطوط بالخزانة الملكية (الرباط) ، وتوجد منه نسختان : الأولى رقمها ١٤٠٦ ورقة ١٣٧ ، والثانية رقمها ٢٦٤٧ ص ٣٨١ ورقة وهو لأبي محمد بن إبراهيم المراعيني .

(١٥٦) في الأصل : ودمرهم ، وهو تحريف ولعل الصواب ما أثبتناه .

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين). وإنني مصمّم بنفسي نحو طاغيتهم ، حتى يحكم الله بيني وبينه ، وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة ، فاحملوا كما أمركم الله ينصركم : (وإنْ ينصركم الله فلاغالب لكم) (١٥٧) ، وحمل المسلمون يكبرون الله ... » (١٥٨) ، وبعد هذا يقول : « قال عبدالملك بن حبيب : دخل الأندلس من التابعين زهاء عشرين رجلا » .

وقد بذلت غاية الجهد للحصول على نصّ خطبة طارق كما هي مسجّلة في ريحان الألباب الخطيّ ، واتصلت بالسفير المغربي ببغداد ، وكتبت عدّة رسائل للمسؤولين في المغرب ، دون جدوى . واخيراً وبعد انتظار استمر اكثر من سنة اسعفني الأخ الدكتور عبدالسلام الهراس بدراسته عن خطبة طارق ، فتسلمت هذه الدراسة ، بعد أن فُقدت النسخة الأولى التي بعث بها إليّ بالبريد او حجبت عني عمداً ، والله أعلم ، فانتفعت بهذه الدراسة كثيراً وكان المفروض أن احظى بنص كتاب المراعيني من المغرب اشاعة للعلم ومعاونة للعلماء والباحثين ، ولكن ما كل ما يعني المرء يدركه .

نصّ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)
في كتابه
وفيّات الأعيان وانباء ابناء الزّمان

فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه ، كتب تُدْمِيْر إلى لذريق الملك ، أنّه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السّماء هم أم من الأرض ،

(١٥٧) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣ : (١٦٠) .

(١٥٨) ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب للمراعيني ، ليس به ترقيم الصفحات ، مخطوط الخزانة الملكية المغربية رقم (٢٦٤٧) نقلا عن بحث : طارق بن زياد وخطبته ، للدكتور عبد السلام الهراس ، مستخرج من دراسات عربية وإسلامية – القاهرة – ١٤٠٣هـ ، كما جاءني النص من الأخ الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي مدير المعهد الجامعي في المغرب بتاريخ ١٩٨٦/٥/١٣ ، أما السفارة المغربية فقد بعثت إلى مشكورة بنص الكتاب مرسل من الأستاذ الجليل عبد الرحمن الفاسي ، فلهم شكري وتقديري .

فلما بلغ ذلك لذريق ، رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس ، ومعه العَجَل يحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين عليه قبّة مكلّلة بالدرّ والياقوت والزبرجد . فلما بلغ طارقاً دنوُّه ، قام من أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغّبهم في الشّهادة ، ثمّ قال :

أيّها الناس ، أين المفرّ ، والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر . واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزر لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (١٥٩)، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة . ولا حملتكم على خطّة أرخَص مُبتاع فيها النفوس إلاّ وأنا أبدأ فيهـا بنفسي . واعلمـوا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلا . استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفر من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدّر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك من الأبطال عربانا (١٦٠) . ورضيكم للملوك

(١٥٩) في طبعة بولاق (١٧٧/٢ – ١٧٨) م : هذه الطاغية ، وكذلك في النسخة (ب) من هذا الكتاب .

(١٦٠) وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة ، عزبان : جمع عزب ، وسنعلق على ذلك في المتن بعد تسجيل نصوص الخطبة .

هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه معكم ثواب الله على أعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أنّي أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهَمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنّهم بعده يخذلون » (١٦١) .

نصّ ابن الشباط (ت ٦٨١هـ)
محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري
في كتابه
صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى
في الفخر المحمدي

ذكر هذا العالم الحجّة خطبة طارق ، مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه ، وأوردها في النصّ الذي عقده لذكر فتح الأندلس في كتابه المذكور .

إلاّ أنّه يجب أن أشير مسبّقاً ، إلى أنّ هناك اختلافاً يسيراً ما بين نصّ هذا العالم ونصّ ابن قُتَيْبَة في : الامامة والسياسة ، وهو اختلاف بسيط لا يخرج عن دائرة اللغة .

وهذا هو النصّ :

---

(١٦١) وفيات الأعيان (٤ / ٤٠٤ - ٤٠٥) - تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد - - القاهرة - ١٣٦٧ هـ - ط ١ .

« ..... ولما بلغ طارقاً دنوُّه منهم ، قام في أصحابه خطيباً (١٦٢) . فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ورغّبهم في الشّهادة ، وبسط من آمالهم ، ثم قال :

« أيّها الناس ، إلى أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو من أمامكم (١٦٣) وليس والله إلاّ الصدق والصّبر . فانّهما لا يُغلبان ، وهما جندان منصوران . لا تضرّ معهما قِلّة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيّها الناس . ما فعلت من شيءٍ فافعلوا مثله . إن حملتُ فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وأنّي عامدٌ إلى طاغيتهم لا أتهيّبه . حتى أخالطه أو أقتل دونه ، فأن قُتلتُ فلا تهنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . وتُولّوا الدّبر عدوّكم ، فتبدّدوا بين قتيل وأسير ، وإياكم أن ترضوا بالدنيّة . ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والرحمة من الذلّة والمهنة ، وما قد أجّل لكم من ثواب الشّهادة . فانكم إن تفعلوا والله معيذكم . تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين . وها أناذا حامل حتى أغشاه . فاحملوا لحملتي » . ثمّ حمل وحملوا . فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً ، فقُتل الطاغية ، وهُزم قومه (١٦٤) .

---

(١٦٢) خطيباً : ساقطة في كتاب الامامة .

(١٦٣) من : ساقطة من كتاب الامامة .

(١٦٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، ووصفه لابن الشباط ، نصان جديدان (١٥٤ – ١٥٥) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي – معهد الدراسات الأسلامية بمدريدا ١٩٧١ م .

نصّ ابن هذَيْل (ت ٧٦٣هـ)
على بن عبدالرحمن بن هذَيْل
في كتابه
تحفة الانفس وشعار اهل الاندلس
نقلاً عن كتاب : محمد عبدالله عِنَان(١٦٥) ـ دولة الاسلام في الاندلس

« أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللِّئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن . إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمراً أناعنه بنجوة
ولا حَمّلتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي . واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان . المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على

---

(١٦٥) دولة الاسلام في الأندلس (١/ ٤٦ – ٤٧) ، ولم يشر الأستاذ عنان إلى المصدر عند إيراده نص الخطبة ، بل عقب على الخطبة بقوله : « ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق . . . » ، وليس لدي نسخة من كتاب تحفة الأنفس لأقارن بين النصين .

إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمن سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . أيّها الناس ، مافعلت من شيءٍ فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا ، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فان قُتلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولّوا الدبر لعدوّكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضـوا بالدنيّة ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلّة ، وما قد أحلّ لكم من ثواب الشّهادة ، فانكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين ، وها أنا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحماتي » (١٦٦) .

نصّ المقّرِيّ (ت ١٠٤١هـ)
احمد بن محمّد المقّرِيّ التّلمِسانِيّ
في كتابه
نفح الطيب
من غصن الأندلس الرّطيب

« فلما بلغ طارقاً دنوّه ، قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغبّهم ، ثم قال :

« أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصّدق والصبّر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللّئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً

(١٦٦) تحفة الأنفس ، نقلا عن : دولة الاسلام في الأندلس (٤٦/١ - ٤٧) .

ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب من رُعْبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أُحذّركم أمراً أنا عنه بنَجْدَة ، ولا حملتكم على خُطة أرخص متاع فيها النفوس (إلاّ وأنا) (١٦٧) أبدأ بنفسي . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً ، استمتعم بالأرْفَهِ الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي . وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين عُربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعّان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرُسان ، ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً لكم في الدارين ، واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند مُلْتَقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لُذَريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فان هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يُخْذلون » (١٦٨) .

---

(١٦٧) زيادة عن ابن خلكان .

(١٦٨) نفح الطيب – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (١ / ٢٢٥) – القاهرة – ١٣٦٧ هـ ، وتحقيق الدكتور احسان عباس (١ / ٢٤١ – ٢٤٢) – بيروت – ١٣٨٨ هـ .

تلك هي ثمانية مصادر معتمدة ، سجّلت خطبة طارق ، ونسبتها إليه ، دون أن تشك في نسبتها أو تشكّك في نسبتها إلى طارق ، وليس كما ادّعى قسم من المستشرقين والمستغربين ، أنّ المقّري في : نفح الطيب ، هو وحده الذي سجلّها : « أقدم مصدر للخطبة ، فيما نعلم ، كتاب المقّري المتوفى سنة (١٠٤١ هـ) ، أي بعد أكثر من تسعة قرون من تاريخ الخطبة ، وهو زمن أخطر من أن يُستهان به » (١٦٩) ، إذ تبيّن لنا أنّ الذين سجلوها فعلوا ذلك قبل صاحب نفح الطيب بأكثر من تسعمائة سنة ابتداء من سنة (٢٣٨ هـ) كما ورد في هذه الدراسة .

ولا أدّعي أنني استطعت تسجيل المصادر المعتمدة كافة التي سجّلت الخطبة ، فهذا ما اتمنى أن يفعله غيري من الباحثين باذن الله ، وقد اعتمدت في تسجيل نصوص الخطبة على باحثين سبقوني ، وقد أشرت إلى أسمائهم وأسماء مؤلفاتهم ومقالاتهم ليعود الفضل إلى أصحاب الفضل ، وساعود الى ذكرهم في الحديث عن المراجع الحديثة التي نسبت الخطبة إلى طارق ، ودافعت عن هذه النّسبة إلى طارق .

وقبل أن أختتم الحديث عن الخطبة في المصادر ، أريد أن أركزّ على نقطتين :

وردت كلمة : (عربانا) في نص : ابن خلكان ، ونص ابن الشباط ، ونص المقّري . وقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عُزْبان : جمع عَزَب) ، وعلى هذا الوجه ينتفى الشك الذي أثاروه ، فقالوا : « لم يكونوا عربانا . بل كانوا برابرة » . وحتى لو بقيت كما هي ، فلا تدل على النسب العربي بقدر دلالتها على الفخر بهذا النسبب ، الذي قصده طارق ، بنسبة هؤلاء البربر إلى العرب رفعاً لمعنوياتهم وأقدارهم ، باعتبار أنّ العرب

(١٦٩) د . أحمد بسام الساعي – خطبة طارق بن زياد هل قالها حقاً ! (٩٧) – مجلة العربي الكويتية – العدد ٢٩٣ – جمادى الآخرة ١٤٠٣ – نيسان (أبريل) ١٩٨٣ م .

يومئذ هم الدعاة والحماة والخلفاء والقادة والمجاهدون والفاتحون ، وكلّ إنسان يحب أن ينسب إليهم ، ليحظى بهذه المكانة الرفيعة .

ومن المدهش حقّاً ، أن البربر – على الرغم من محاولات الإستعمار الحديث – لا يؤلمهم أن يقال عنهم : إنّهم عرب ، بل يؤلمهم أن يقال عنهم: إنّهم ليسوا عربا (١٧٠) .

وهناك أدلة كثيرة على أنّ العرب والبربر من أرومة واحدة ، يلتقون بأنسابهم وأحسابهم بالعرب الأقدمين، وبأمّهم الرءوم : جزيرة العرب (١٧١) .

وأساليب البلاغة العربيّة كثيرة ، فاذا قال قائد لرجاله : أنتم أسود ، تقوية لمعنوياتهم ، وحثاً لهم على الثبات ، فقد لايفهم غير العربيّ مثل هذا التعبير ، لأنه لايفهم العربية ، أما ألاّ يفهم العربيّ مثل هذا التعبير ، فالأمر مختلف جداً . وكذلك بالنسبة لتعبير : (عربانا) التي وردت في خطبة طارق ، فاذا عجز غير العربي عن فهم هذا التعبير كما ينبغي ، وفهمَهُ بمعناه اللّفظيّ لابمعناه المجازى ، فله ما يسوّغ هذا العجز عن الفهم ، أما العربيّ ، فلا مسوّغ له بمتابعة مَن لم يفهم ، وهو الذي يجب ان يفهم .

ومع ذلك ، فانّ الذين لم يفهموا هذا التعبير أو فهموه ، قد بالغوا كثيراً في استنتاج أنّ الخطبة ليست لطارق ، استناداً على كلمة (عربانا) ، فليس من السهل ردّ الحقائق بالظنون .

وإذا كان فتح المسلمين ، لبلد من بلاد النصارى ، كبلاد الأندلس مثلاً ، وبقاؤهم فيه قروناً طويلة – كما هو معروف ، حافزاً للمستشرقين من غير المسلمين على تصيّد ما يستطيعون به الشك والتشكيك في تاريخ الفتح الأندلسي وتاريخ المسلمين في الأندلس ، فما الحافز للمسلمين في تقليد الشاكين والمشكّكين؟

(١٧٠ عقبة بن نافع الفهري – (٣٥) – بيروت – ١٣٩٢ هـ .
(١٧١) انظر التفاصيل في : عقبة بن نافع (٢٣ – ٥٣) .

ومن غير المعقول أن نطبّق الأفكار الشائعة في هذا القرن حول التفرقة بين الأقوام . على القرن الهجري الأول ، الذي ساد فيه الأخاء الإسلامي ، وأصبح التفاضل بين الأفراد بالتقوى لا بالنسب ، فلا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى ، فما أراد طارق بتعبير : (عربانا) نسبا ، بل أراد غير ذلك ، وعلى الباحث دراسته كما كان لا كما يريده أن يكون ، ليستخلص الواقع ويبتعد عن الخيال .

تلك هي النقطة الأولى .

أما النقطة الثانية ، فهي أنّ أسس خطاب طارق واحدة في النصوص الثمانية التي سجلتها المصادر المعتمدة الثمانية ، ولكنّها تختلف في بعض الكلمات وبعض التعابير بما لا يمسّ بأسس معاني الخطاب ، كما تختلف في حجم الخطاب طولاً وقصراً ، والظاهر أنّ قسماً من المؤلفين سجّلوه حرفياً دون أن يختصروا منه شيئاً . وقسماً منهم سجّلوا أبرز ما ورد في الخطاب من جُمَل ، وحذفوا ما بقي منه . وبخاصة الجمل ذات المعاني العامة الشائعة التي يكثر ترديدها في الخطب والمواعظ وغيرها . أي أنّهم أبقوا في الخطاب ما ورد فيه من معانٍ خاصة يتميّز بها عن الخطب الأخرى ، وحذفوا ما ورد فيه من معان عامة تتكرر في الخطب وفي المواعظ وعلى ألسنة الناس .

إنّ النصوص المسجّلة للخطبة مختصرة ومطوّلة ، تتّفق بالمعاني الخاصة التي يتميّز بها خطاب طارق عن سائر الخطب ، ولكنّها تختلف في المباني إيجازاً وتفصيلا . والمعاني أهم من المباني . واتفاق المصادر على المعاني ، دليل جديد على أنّها لطارق لالغيره من الناس .

(٢) . في المراجع :

لايمكن ذكر جميع المصادر التي أيدّت نسبة خطبة طارق إليه ، فهي كثيرة جداً ، فلا بأس من ذكر قسم منها ، وبخاصة التي اطّلعت عليها وذكرتها في هذا البحث .

فقد جزم الأستاذ عبد الله كنوّن من جملة انطباع البربر بالطابع العربيّ البحت ، وأيدّ نسبة الخطبة إلى طارق ، في كتابه : النبوغ المغربيّ (١٧٢) .

كما أيدّ الدكتور عبد السّلام الهرّاس نسبة الخطبة إلى طارق ، في مقالين اطلعت عليهما (١٧٣) ، كما نشر بحثاً في القاهرة لم أطلع عليه ، وحماسة الهراس وغيرته مما يُحمد عليها .

كما نشر الأستاذ عبد العزيز الساوري مقالاً ، أيدّ فيه نسبة الخطبة إلى طارق ، وأضاف مصدراً جديداً سجّل الخطبة هو كتاب : صلة السمط لابن الشباط (١٧٤) .

كما نشر الشيخ محمد أبو زيد طنطاوي بحثاً عنوانه : فتح العرب للأندلس ، أيدّ فيه نسبة الخطبة إلى طارق بن زياد (١٧٥) .

تلك أمثلة على مَن أيدّ نسبة خطبة طارق إليه ، إما بتدوينها في سير أحداث الفتح ، أو في مناقشة الرافضين الاعتراف بنسبة تلك الخطبة إلى طارق ، وهي عبارة عن البحوث التي اطّلعت عليها ، ومن المؤكدّ أنّ الدراسات والبحوث التي لم أطّلع عليها ، أكثر بكثير من البحوث والدراسات التي اطلعت عليها ، ومن المفيد أن يتمّ الاطّلاع عليها والتنويه بها .

ويمكن أن نتبيّن أن رفض الخطبة ارتفع مدّه في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي ، حتى تكاثر الرافضون وأصبح الرفض أمراً مسلّماً به في الدراسات الأندلسيّة . وانقسم الرافضون إلى قسمين : قسم يصرّح برفضه ، وقسم يغفل الخطبة إغفالاً كاملاً ،

(١٧٢) النبوغ المغربي (١ / ٢٢ – ٢٣) .
(١٧٣) دعوة الحق – العدد الخامس – السنة الحادية عشرة ، والعدد (٢٢٨)
(١٧٤) دعوة الحق – العدد ٢٢٥ – (١٠٠ – ١٠١) .
(١٧٥) مجلة الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة – العدد الثاني – السنة العاشرة – رمضان ١٣٩٧ هـ آب وأيلول (اغسطس سبتمبر ١٩٧٧ م – (٤٣ – ٦٧) – مكة – ١٣٩٧ هـ

فلا يذكرها في دراسته ولا يشير إليها ، كأنّ رفضها حقيقة لاغبار عليها ، يخجل الباحث من الاعتراض على الرفض ، أو من التطرّق إلى الخطبة من قريب أوبعيـد .

وللتاريخ أذكر ، أنّ أوّل مَن رفض الرّفض وردّ عليه ، هو الأستاذ عبد الله كنون ، في كتابه : النبوغ المغربي ، ثم توالت الردود في نماذج تطرّقنا إلى ما اطلعنا عليه ، واستفدنا منه في هذه الدراسة .

واليوم أصبح هناك مَن لايخجل من رفض الرفض والردّ عليه ، بل أصبح هناك مَن يخجل من السّكوت عن رفض الرفض والنهوض بأعبائه ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس .

وظهرت الدراسات التي تؤكّـد نسبة خطبة طارق إليه ، داحضة حجج الرافضين ، وهذه الدراسات هي أوّل الغيث ثمّ ينهمر باذن الله ، فلا يقتصر على خطبة طارق ، بل يشمل كلّ ما شك فيه المؤلّفون الأجانب وعلى رأسهم المستشرقون وشككوا فيه بدون حقّ ولأسباب بعيدة عن المنهج العلمي قريبة من التعصب الدينيّ على الاسلام والمسلمين ، وعلى الواقع والتاريخ .

ب . حرق السُّـفن :

ذكر الشريف الادريسي في معجمه الجغرافيّ : (نزهة المشتاق) ، عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أنّ طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس (١٧٦) ، وقد نقلت بعض المصادر والمراجع المتأخرة هذه الرواية عن الادريسي فيما يرجّح ، وفيما عدا ذلك فان جميع المصادر العربية والاسلاميّة ، تمرّ عليها بالصمت المطلق (١٧٧) .

(١٧٦) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١٧٨) – طبع روما .
(١٧٧) دولة الأسلام في الأندلس (٤٨) .

وقد يقال ، إنّ في خطاب طارق ما يؤيّد صحّة هذه الرواية ، فطارق يستهلّه بقوله : « أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصّبر » ، وفي ذلك مايمكن أن يفسّر أنّ الجيش الإسلاميّ الفاتح ، قد جُرِّد من السفن التي حملته من سبتة إلى الأندلس .وتفسير أقوال طارق هذه ، هو أنّ السفن ليست ملكاً للفاتحين ولا تحت تصرّفهم في جميع الأوقات ، وأنّها عادت إلى صاحبها يَليان ، ولم تبق على الساحل الأندلسي ، جاهزة لتأمين انسحاب الفاتحين من الأندلس إلى السّاحل الإفريقيّ .

إنّ يليان هو الذي قدّم السُّفن لنقل الفاتحين إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طَريف بن مالك . وهو الذي قدّم السُّفن إلى الفاتحين بقيادة طارق ، وهي ليست ملكاً للمسلمين ليُقدم طارق على حرقها ، بل هي ملك صاحبها يليان ، فاذا ألتحقت به بعد إنجاز واجبها في حمل الفاتحين إلى البرّ الأندلسيّ ، وبعد إكمال إنزال الفاتحين من تلك السُّفن إلى البر الأندلسي ، فلا تبقى سفن على السّاحل الأندلسي يركن إليها المسلمون في انسحابهم من الأندلس إلى السّاحل الإفريقيّ ، كما لايبقى مسوِّغ لإحراق تلك السُّفن .

كما أنّ طارقاً ومَن معه من مجاهدين ، جاءوا إلى الأندلس ، للجهاد من أجل عقيدة ، وكانوا مستعدين للشهادة من أجل عقيدتهم ، فلا مسوِّغ لإحراق السُّفن من أجل وضعهم وجهاً لوجه أمام الدِّفاع عن أرواحهم ، فما كانوا بحاجة إلى مَن يضعهم هذا الموضع الحرج ، لأنّ أرواحهم لم تكن في حال من الأحوال أغلى عليهم من عقيدتهم ، وما أنجزوه قبل عبورهم إلى الأندلس وبعد عبورهم إليها خير دليل على استقتالهم من أجل قلوبهم لا من أجل جيوبهم ، ومن أجل عقيدتهم لا من أجل أرواحهم .

والواقع أنّ الإقدام على حرق سفن العبور ، يصعب تصديقه ويصعب مجرّد التصوّر أنّ طارقاً يمكن أن يفعله ، فاذا كانت تلك السُّفن ليليان ، كما هو

معروف ، فليس من حقّ طارق إحراقها ، وإذا كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليما ، إذ يخالف مبدأ الاقتصاد بالقوّة ، أحد مبادئ الحرب المهمة ، ولا يتفق مع المنطق والعقل .

لذلك لم تُشر المصادر الأندلسية العربية الأولى ، إلى قصّة إحراق السفن ، والمصادر التي ذكرت تلك القصّة نقلتهـــا عن الشريف الإدريسي وكذلك المراجع (١٧٨) ، ومنها المصادر والمراجع النصرانية ، وبخاصة المصادر الإسبانية والمراجع ، وقد تأثر بتلك القصة قسم من قادة الإسبان ، فقلّدوا تلك القصة عملياً في قسم من عملياتهم العسكرية (١٧٩) .

وعلى كلّ حال ، فقصّة إحراق السفن لاسبيل إلى تصديقها ، لأنّها تناقض حماسة المجاهدين يومئذ الذين لايحتاجون إلى حوافز جديدة للاستقتال ، ولأنّ السُّفن لم تكن ملكاً للمسلمين بل ملكاً لغيرهم ، ولأنّ هذه القصّة دوّنت لأوّل مرة في القرن الخامس الهجري ، أي بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون صُنِّفت خلالها كثير من المصادر الأندلسية المعتمدة ، دون أن تشير إلى هذه القصة أو تتطرّق إلى ذكرها ، كما لم تؤيّدها أية رواية إسلامية أخرى قبل رواية الإدريسي لهـــا .

---

(١٧٨) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للادريسي (١٧٧) وتاريخ الأندلس (٤٦) والروض المعطار (٧٥) ونفح الطيب (٢٥٨/١) والحلل السندسية (٨٢/١) ، وانظر دولة الاسلام في الأندلس (٤٨ – ٤٩) .

(١٧٩) يقدم لنا تاريخ إسبانيا الحديث ، مثلا للمحتل الذي حرق سفنه التي عبر عليها جيشه ، لكي يقطع على جنده كل تفكير في الانسحاب والرجعة . فقد أحرق القائد المكتشف الأسباني هرناندو كورتيث الذي احتل المكسيك سفنه ، حينما أشرف على شوطئ المكسيك مستكشفاً في سنة ١٥١٩ م ، تلك السفن التي حملت جيشه من إسبانيا إلى المكسك . ومن المعقول أن يكون هذا القائد الأسباني ، قد تأثر في عمله بالعمل الذي ينسب إلى طارق بن زيادة فاتح الأندلس ، أنظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٩) في الهامش (١) .

٥ ـ المعركة الحاسمة
معركة وادي بَرْباط او وادي لكّة

(أ) قوّات الطرفين :

اولاً : المسلمون :

اثنا عشر ألفاً ، (١٨٠) إنضمّ إليهم يليان في قوة صغيرة من أصحابه وأتباعه (١٨١) . ولا يزال مدى مشاركة يليان في فتح الأندلس موضع اختلاف بين المؤرخين ، وهناك أدلّة تشير إلى أنّ مهمّته كانت مساعدة الفاتحين وإعطاء توجيهات عامة لهم في أثناء العبور ، وكان أيضاً عيناً لهم على الأعداء(١٨٢)، ولكن بعد هزيمة القوط، ترك يليان الجزيرة الخضراء إلى إسْتِجَة (١٨٣) (Ecija) وقرّر أن يبدى مساعدة أكبر لطارق بتزويد الفاتحين بأدلاّء من رجاله ، لأنجاز افتتاح الأندلس (١٨٤) .

وأرى أنّ يليان لم يرسل جنوده ليقاتلوا ، إذ لا يستعين المسلمون بغير المسلمين في القتال ، وإنما كانت معاونة يليان وتعاونه للمسلمين في إبداء الرأي والمشورة ، وتقديم الأدلاّء ، وتأمين العيون لنقل الأخبار من القوط إلى المسلمين ، والمعاونة في القضايا الاداريّة كتقديم السُّفن للعبور ، أما مباشرة القتال في ساحة القتال ، فقد اقتصر على المسلمين حسب . وما يقال عن يليان ورجاله ، يقال عن أعداء لذريق من القوط النصارى الذين التحقوا بالمسلمين قبل بدأ القتال في المعركة الحاسمة ، فلم يباشروا القتال مع المسلمين أيضاً ، للمحاذير التي ذكرناها .

---

(١٨٠) نفح الطيب (٢٣٩/١) .

(١٨١) دولة الاسلام في الأندلس (٤٢) .

(١٨٢) فتوح مصر والمغرب (٢٠٦) والرازي (٩٨ – ٩٩) وأخبار مجموعة (٧) وابن الأثير (٥٦٢/٤) والنويري (٢٧/٢٢) .

(١٨٣) إستجة : اسم كورة بالأندلس متصلة بأعمال (رية) ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

(١٨٤) الاحاطة (١٠٠/١) وأخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب(٩/٢) ونفح الطيب(٢٦٠/١) .

ثانياً . القوط :

اجتمع يومئذ للقوط جيش تعداده مائة ألف مقاتل (١٨٥) ، وأقلّ تقدير له أربعون ألفاً (١٨٦) ، ولا يمكن معرفة تعداد جيش القوط اليوم بالضبط ، فهو على كلّ حال بين هذين التّعدادين ، أي نحو سبعين ألفاً . كما جرى تقديره في بعض المصادر العربيّة المعتمدة (١٨٧) .

على الميمنة ششبرت بن أخيكا ، وعلى الميسرة أبه بن أخيكا ، وعلى القلب لذريق ، وهو القائد العام والملك .

وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الدّاهم بالاتّحاد ، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم ، كما استعان بأفراد العائلة المالكة السّابقة في قياداته ، لتوحيد الجبهة الداخلية ، وإذابة الخلافات المحليّة ، وحشد جهود القوط كافة وطاقاتهم الماديّة والمعنوية لحرب المسلمين .

ب . التّوقيت :

تلاقى المسلمون والقوط يوم الأحد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان . واتّصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شهر شوّال بعد تتمة ثمانية أيام (١٨٨) ، أي كان لقاء الجيشين المحاربين في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز (يولية) سنة ٧١١ م) واستمرت ثمانية أيام فقط الى اليوم الخامس من شوّال سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٢٦ تموز (يولية) ٧١١ م) .

(١٨٥) ابن الأثير (٢١٤/٤) ونفح الطيب (١٢٠/١) ، ويقدره في مكان آخر بسبعين ألفاً ، أنظر نفح الطيب (٢٣٣/١) ، ويأخذ جيبون بهذه الرواية ، فيقدره بتسعين ألفاً أو مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون) .

(١٨٦) ابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢٣٣/١)

(١٨٧) نفح الطيب (١١٢/١) .

(١٨٨) نفح الطيب (٢٥٩/١) وتاريخ الأندلس (١٣٥) .

أي أنها بدأت وانتهت خلال ثمانية أيام فقط (٢٨ رمضان – ٥ شوال سنة ٩٢ هـ (١٨٩) – ١٩ – ٢٦ تموز ٧١١ م) (١٩٠) .

جـ . ميدان القتال :

كان ميدان القتال في كورة شَذُوْنة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا (١٩١) في سهل الفرنتيرة (Fron tera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر بَرْبَاط (Barbate) المتّصلة به . وقد تُعرف أحيانا معركة وادي برباط في الرواية الإسلاميّة بمعركة وادي بكه او لَكَّهْ (Gudalete) (١٩٢) ، لعله مأخوذ من (Logo) وهو البحيرة ، أي : بحيرة الخندق (١٩٣) ، فأصبحت البحيرة علماً على المكان (١٩٤) . أما وادي لَكَّهْ (Guadalete) المعروف في الجغرافية الإسبانية الحديثة ، فيقع إلى الشمال منه ، ويصب في خليج مدينة قادِس (١٩٥) (Cadiz) ، ويصب نهر برباط في المحيط الأطلسي عند طَرَف الأَغَرّ (Trafalgar) (١٩٦)

---

(١٨٩) تجمع الرواية الأسلامية تقريباً ، أن المعركة كانت في ذلك التاريخ ، ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول : إنها كانت في السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ ، أنظر نفح الطيب عن ابن حيان (١١٦/١) ، ولعله ينفرد بهذا الخلاف ، أنظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٤).

(١٩٠) الفتح والأستقرار العربي الأسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٨) .

(١٩١) تاريخ الأندلس (١٣٥–١٣٦) نص ابن الشباط ، ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

(١٩٢) الروض المعطار (١٦٩ و ١٩٣) ونفح الطيب (٢٤٩/١ و ٢٥٨) ودولة الأسلام في الأندلس (٤٢/١ – ٤٤) .

(١٩٣) فرحة الأنفس – ابن غالب – مجلة معهد المخطوطات العربية (٢٩٤/١/١) والحلة السيراء لابن الأبار (٣٣٣/٢) وأخبار مجموعة (٧) و
Levi - Provenfal Histoire L' Espagne Musulmane, 1,21

(١٩٤) نفح الطيب (٢٥٧/١ – ٢٥٨)، قارن نصوص عن الأندلس–ابن العذري (١١٨ و ١١٩).

(١٩٥) قادس : جزيرة في غربي الأندلس ، تقارب أعمال شذونة ، طولها اثنا عشرة ميلا قريبة من البر ، بينها وبين البر خليج صغير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٧–٥).

(١٩٦) التاريخ الأندلسي (٥٦) .

وغير بعيد أن يكون اسم وادي لَكُّهْ في الرواية الإسلامية ، لم يُقصد به وادي بَرْباط – ولو أحياناً – بل قُصد به أصلاً وادي لَكُّهْ (Guadalete) كما هو معروف اليوم ، الذي يصبُّ في المحيط عند قادس ، ويقترب أحد فروعه من ميدان المعركة الواسع أو كان شاملاً له . وجَعّل هذا الوادي : وادي لَكُّهْ ضمن كورة شَذُوْنَة (Sidonia) (١٩٧) التي كانت مدينتها شَذُونة (Medina Sidonia) ، ميداناً لمعركة البرباط : « وبها كانت الهزيمة على لذريق (١٩٨) » ، يزيل اللّبس . وعلى ذلك فلا وجود لاشتباه او خلط او تغليب في تسمية الرواية الإسلامية لوادي لَكُّهْ ، وعندها تنصرف التّسميات المتعلّقة بهذه المعركة الى تسمياتها الأصليّة (١٩٩) .

وهناك دراسات حديثة عديدة بشأن : ميدان القتال ، الذي حدثت فيه المعركة الحاسمة بين لذريق وطارق ، فيرى أحد المستشرقين حدوث معركتين : الأولى وقعت قرب مدينة شَذونة ، بين جبل رتين (Sierro del Retin) وبحيرة لاغاندا (Lago dela Janda) ، وحدثت الثانية عندما هرب لذريق نحو الشمال . وحارب المسلمين قرب (Segoyuela) (٢٠٠) ويتفق معه مستشرق آخر (٢٠١) ، بينما يعارض مستشرق ثالث ما ذهب اليه هذان المستشرقان (٢٠٢) . ويؤيده مستشرق رابع الذي يتفق مع المؤرخين العرب على أنّه كانت هناك معركة واحدة كبيرة فقط بين المسلمين والقوط ،

---

(١٩٧) تاريخ الأندلس (١٣٤) نص ابن الشباط .

(١٩٨) تاريخ الأندلس (١٣٥) .

(١٩٩) التاريخ الأندلسي (٥٦ – ٥٧) .

(٢٠٠) Saavedra, PP. 68-69, 99-101 ، وانظر الرازي – نشر سافيدرا (١٥٤) و Alfonso, 111,P. 612

(٢٠١) F. Simonet, op. 23-51.

(٢٠٢) Provencal, Vol. 1. PP. 20-21, 25.

وهي التي حدثت قرب ضفاف نهر وادي بَكَّهْ او لَكَّهْ في كورة شَذونَة وأنّ لذريق هزم وقتل قرب هذا النهر (٢٠٣) .

وقد ذهب بعض المؤرخين المستشرقين ، بعيداً في تحديدهم لميدان القتال ، فيفترض أحدهم أنّ المعركة حدثت قرب نهر (Sangonera) الذي يسمى أيضاً بوادي الطين . وهو (Guadalentin) أو (Gudatin) ، وهو فرع من نهر شقورة (Seguar) في محافظة مُرْسِيَة (٢٠٤) شرقي إسبانيا (٢٠٥) .

وعلى كلٍّ حال ، فان دراسات المستشرقين الحديثة ، لم تأت بجديد ، وأقربها للصواب هي التي اتّفقت مع المؤرخين العرب في مصادرهم المعتمدة ، التي ذكرت أن ميدان القتال جرى على وادي برباط على مقربة من شذونة(٢٠٦) . أما التي اختلفت مع تلك المصادر ، فلم تأت بشيءٍ يُطمئنّ إليه ، وتاهت في غمرات التيه دون أن تأت بجديد .

د . سير القتال :

فرّق نهر بَرْباط بين الجيشين المتحاربين مدى أيام ثلاثة ، شُغلت بالمناوشات البسيطة بين الجيشين ، وقد كان جيش القوط في الضفة الشمالية من النهر ، وكان جيش طارق في الضفة الجنوبيّة منه . وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ، ونشبت بينهما معركة عارمة . وظهر لذريق في وسط الميدان في حلل

---

(٢٠٣) C. Sànchez - Albornoz, ((Otra Vez Guadalete y Covadonga)), Cuadernos de Historia de España, 1-11, 1944 , PP. 12, 42, 56,58 , 67.

(٢٠٤) مرسية : مدينة بالأندلس من أعمال تدمير ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٤ – ٢٥).

(٢٠٥) انظر أحمد مختار العبادي – نصان جديدان – مجلة معهد الدراسات الأسلامية بمدريد – العدد الثالث عشر – ١٩٦٥ – ١٩٦٦ – ص (٢٨ – ٤٠) .

(٢٠٦) أنظر نفح الطيب (١/٢٥٧ – ٢٥٨) وتاريخ الأندلس (١٣٥ – ١٣٦) نص ابن الشباط والروض المعطار (١٦٩ و ١٩٣) .

ملوكيّة ، فوق عرش تجرّه الخيول المطهّمة ، وهو منظر أثار سخرية جيبون ولاذع تهكّمه ، إذ يقول عنه : « ولقد يخجل ألاريك (مؤسّس دولة القوط) عند رؤية خلفه لذريق ، متوّجاً بلآلىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضطجعاً في هودج من العاج (٢٠٧) .

وأظهر البربر المسلمون من غُمارة قدرة عظيمة على القتال ، فقد كانوا من المحاربين من بين إفراد تلك القبيلة المعروفين بالاقدام والشجاعة ، ومن المدرّبين على التّعابى العسكرية أحسن تدريب . وكان طارق قد قدم نفراً من السُّودان (٢٠٨) أمام جيشه ، ليتلقوا بما عُرف عنهم من الصبر والثبات الصدمة الأولى من الجيش القوطي ، التي تكون عادة صدمة مدبّرة تؤثر في المعنويات للمتقاتلين ، فترتفع معنويات المنتصر ، وتنها ر معنويات المنكسر .

وأظهر فرسان القوط قدرة قتالية عظيمة في أوائل المعركة ، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسُّودان المسلمين ثباتاً عظيماً ، وكبدوا المسلمين خسائر بالأرواح كبيرة .

وكان قوّاد الفرسان من القوط ، أعداء لذريق ، غاضبين عليه وناقمين منه . وكان يليان ورجاله نشطين طوال المعركة في تخذيل الناس عن لذريق وصرفهم عنه ، وكانوا يؤكدّون للذين حول لذريق أنّ المسلمين لم يُقبلوا الى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظّفر بالغنائم ، وأنّهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين رجال

---

(٢٠٧) تشير معظم الروايات الاسلامية إلى هذا المنظر ، فيقول الطبري نقلا عن الواقدي . « فزحف الأدرينوق في سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التي كان يلبسها الملوك » ، انظر الطبري (٤٦٨/٦) ونفح الطيب (١١٢/١) والبيان والمغرب (٢ / ٩) .

(٢٠٨) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا الاسباني ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً في الفتح . Saavedra. op. cit. P. 71

لذريق ، وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه ، فلم يلبث فرسانه وهم خيرة جنده ، أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره (٢٠٩) .

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين الجانبين أربعة أيام ، ثم انهزم القوط وقُتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبّسة بالأرض (٢١٠) .

ويقال : إنّ انتصار طارق كان بسبب تعرّض لذريق للخيانة ، وتذكر الحوليات اللاتينية ، أن المسلمين عبروا إلى الأندلس ، وهزموا الجيش القوطي بسبب خيانة أولاد غيطشة (٢١١) . وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى أنّ مباحثات جرت في طنجة قُبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد اولاد غيطشة(٢١٢)، بينما يقول آخرون إنّ هذه المباحثات جرت قُبيل بدء المعركة بوقت قصير ، عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا ، فعرض أولاد غيطشة ، أن يتخلوا عن لذريق ، ويؤيّدوا طارقاً برجالهم ، شريطة أن يضمن لهم كلّ ممتلكات والدهم التي تبلغ ثلاث آلاف ضيعة ، وهي التي سُمّيت فيما بعد بصفايا الملوك ، وذلك بعد أن يُخضع إسبانيا جميعها للمسلمين (٢١٣) .

---

(٢٠٩) تجمع المصادر العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة ، إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والمسلمين . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذي قام بترتيب المؤامرة كانا أخوى غيطشة ، ششبرت بن أخيكا ، وأبه بن أخيكا ، وكان أحدهما على خيل لذريق في هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذريق يعهد في أمر مهم كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المصادر العربية تذكران لذريق سعى في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة – وقد ترعرعوا وركبوا الخيل يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم . . . » ، ابن القوطية – افتتاح الأندلس (٢ – ٣) ، وانظر الهامش (١) من كتاب فجر الأندلس (٧٤) .

(٢١٠) المقرى برواية الرازي (١٢١/١) .

(٢١١) Chronicon Albeldense, p. 193, Alfonso 111. p. 612.

(٢١٢) البيان المغرب (٦/٢) .

(٢١٣) افتتاح الأندلس (٥) والروض المعطار (٩ – ١٠) ونفح الطيب (٢٥٨/١) .

وقد أورد مؤرخون عرب آخرون ، تفسيرات أكثر احتمالا وواقعية ، بشأن هذه المسألة . ولاتعرض مصادرهم لأية مباحثات بين طارق وأولاد غيطشة ، ويقتصر الأمر على أن اولاد غيطشة وبعض نبلاء القوط ، قرّروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة ، لأنهم اعتقدوا أنّ المسلمين لا ينوون الاستقرار في البلاد ، بل إنهم جاءوا من أجل الغنائم ، وبعد أن يندحر لذريق ، فانّ العرش سيعود إلى أصحابه الشرعيين ، الى أولاد غيطشة (٢١٤) .

وقد كان الجيش القوطي نفسه مؤلفا في معظمه من العبيد المجندين ، وهم من المرتزقة المضطرين على القتال اضطراراً ، إذ لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل ، فهم يقاتلون بقدر خشيتهم لأسيادهم ، وبقد ما تدر عليه مهنتهم من مكاسب ماديّة ، قد لا تُسمن ولا تغني من جوع في أغلب الأحيان .

ويبدو أنه لم يكن هناك أيّ أمل في أن يتمكن هذا الجيش القوطي من مقاومة الهجوم الإسلامي . وإنّ دور أسرة غيطشة في ترجيح كفّة المسلمين ، قد تعرّض إلى كثير من المبالغة (٢١٦) . وكانت صفوف الجيش القوطي تتألف من أتباع آل غيطشة وأتباع حلفائهم من الزعماء والأمراء الناقمين على لذريق ، والذين تظـاهروا بالأخلاص في وقت الخطـر ، وكلّهم يتحيّن الفرصة للايقاع بالملك المغتصب لذريق (٢١٧) . فكانت الخيانة تمزّق جيش القوط شرّ ممزق . واستمال يليان والأسقف أوباس وهما في صفّ المسلمين كثيراً من جند القوط . وبثّا بدعايتهما في الصفوف الموالية للذريق كثيراً

---

(٢١٤) أخبار مجموعة (٧ – ٨) وفتح الأندلس (٦ – ٧) وابن الأثير (٤ / ٥٦٣) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦ – ١٠٧) والنويري (٢٢ / ٢٧) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١ / ٢٣١ – ٢٣٢ – و٢٥٧ – ٢٥٨) .

(٢١٥) Thompson. pp. 265 - 267, cit. Lv.v. 3.4.7.19.

(٢١٦) الفتح والاستقرار العربي الأسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٩) .

(٢١٧) ابن الأثير (٥٦٣/٤) ونفح الطيب (١٢١/١) ودوزى (٢٧٢/١) .

من عوامل الشقاق والتفرقة ، فأخذ كلّ أمير يسعى في سلامة نفسه (٢١٨) . وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى في جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ مَن بقى منه بالفرار وأسياف المسلمين في أقفيتهم . وقد قتل من القوط في تلك الأيام عدد عظيم ، ولم يعثر للذريق على أثر . وتذهب المصادر العربيّة إلى أنّه أراد أن يعبر وادي البرباط على عجل ، فغرق فيه ، ولم يعثر المسلمون إلاّ على خفّه (٢١٩) . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إنّه بقى في ميدان القتال حتى قُتل مدافعاً عن عرشه وأمته ، وتقول بعضها : إنه فرّ عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنّه غرق في مياه النّهر . وتميل الروايات الاسلامية إلى تأييد غرقه ، وتقول : إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبيّ . ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النّصرانية ، أنّ لذريق استطاع أن يلوذ بالفرار ولكنّه قُتل بعد ذلك ، أو أنّه فرّ إلى بعض الأديار في البرتغال وترهّب ، وعاش متنكراً حيناً من الدّهر . وينفرد صاحب كتاب : الامامة والسياسة ، بين المشارقة برواية أخرى ، وهي : أن طارقاً ظفر بجثّة لذريق ، فاحتز رأسه ، وبعث به إلى موسى بن نُصَيْر ، وبعث به موسى بن نصير إلى الخليفة في دمشق ، ويتابعه في ذلك مؤلف أندلسيّ هو صاحب كتاب : تحفة الأنفس (٢٢٠) هذا إلى روايات كثيرة .

والمرجّح من هذه الروايات كلّها ، أن لذريق فقد حياته في الموقعة التي فقدَ فيها ملكه ، وأنّه مات قتيلاً او غريقاً على الأثر (٢٢١) .

(٢١٨) دولة الأسلام في الأندلس (٤٤) .

(٢١٩) . لا يقطع ابن عذاري في البيان المغرب بموت لذريق ، ويكتفي بقوله : « ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثة ، وانما وجد له خف مفضض ، فقالوا : إنه غرق . وقالوا : إنه قتل ، والله اعلم » ، انظر البيان المغرب (٢/١٠) وفجر الأندلس (٧٤).

(٢٢٠) . الأمامة والسياسة (٢/٧٥ – ٧٦) وانظر دولة الأسلام في الأندلس (٤٥) .

(٢٢١) . يقول ابن الأثير (٤/٢١٤) : إنه غرق في نهاية المعركة ، ويقول المقري في نفح الطيب (١/١٢١) : إنه رمى بنفسه الى النهر مختاراً ، وقد نقلته أيضا رواية ، اخبار مجموعة (٦) . انظر التفاصيل في الفقرة (٢) من الهامش في كتاب : دولة الأسلام في الأندلس (٤٥) .

تلك مجمل ما جاء في المصادر والمراجع ، حول أهم أسباب انتصار طارق على لذريق ، آثرت ذكرها باختصار غير مُخِلّ ، مع الإشارة إلى مصادرها ومراجعها ، لكي أُناقش آراءها ، وأُبدي ما أراه حولها .

والمتتبِّع لسير القتال في هذه المعركة الحاسمة ، يجد أنّ القتال كان ضارياً بين الجانبين المتحاربين : المسلمين من جهة ، والقوط من جهة أخرى . فثبات البربر من غُمارة ، وإظهارهم القدرة العظيمة على القتال ، دليل على أنّ زخم القوط في المعركة كان شديداً ، ولا يقاتل بهذه الشِدّة رجال تنخر بين صفوفهم الإشاعات الضارّة ، ويتآمرون على السُلطة القائمة المتمثّلة بلذريق ملكاً وقائداً عاما .

وقد أظهر فرسان القوط في اليوم الرابع من المعركة ، بعد أن حمى الوطيس قدرة قتالية عظيمة ، وثبتوا لضغط المسلمين الشديد ، ولا يمكن أن يُظهر مثل هذه القُدرة متآمر أو مقاتل تعصف بأرادته القتالية الأشاعات الضّارة .

كما أنّ تصدىّ السُودان المسلمين البطوليّ العزوم للقوط ، يدلّ على أنّ القوط كانوا يقاتلون في المعركة كما يقاتل الرجال .

وكان تعداد جيش المسلمين في هذه المعركة – كما ذكرنا – اثنى عشر ألف مجاهد ، استُشهد منهم في المعركة ثلاثة آلاف مجاهد . أي أنّ خمسة وعشرين بالمئة من جيش المسلمين استُشهدوا في هذه المعركة ، وهي نسبة عالية جداً ، إنْ دلّت على شيء ، فانّما تدّل على شدة مقاومة القوط في المعركة ، وأنهم قاموا بواجبهم في القتال . فقد قسم طارق الغنائم بعد هذه المعركة على تسعة آلاف من المسلمين (٢٢٢) ، أي أنّ هؤلاء هم الذين سلموا، وقُتل الباقون .

---

(٢٢٢) . نفح الطيب (١٦٣/١) ، وانظر فجر الأندلس (٧٥) .

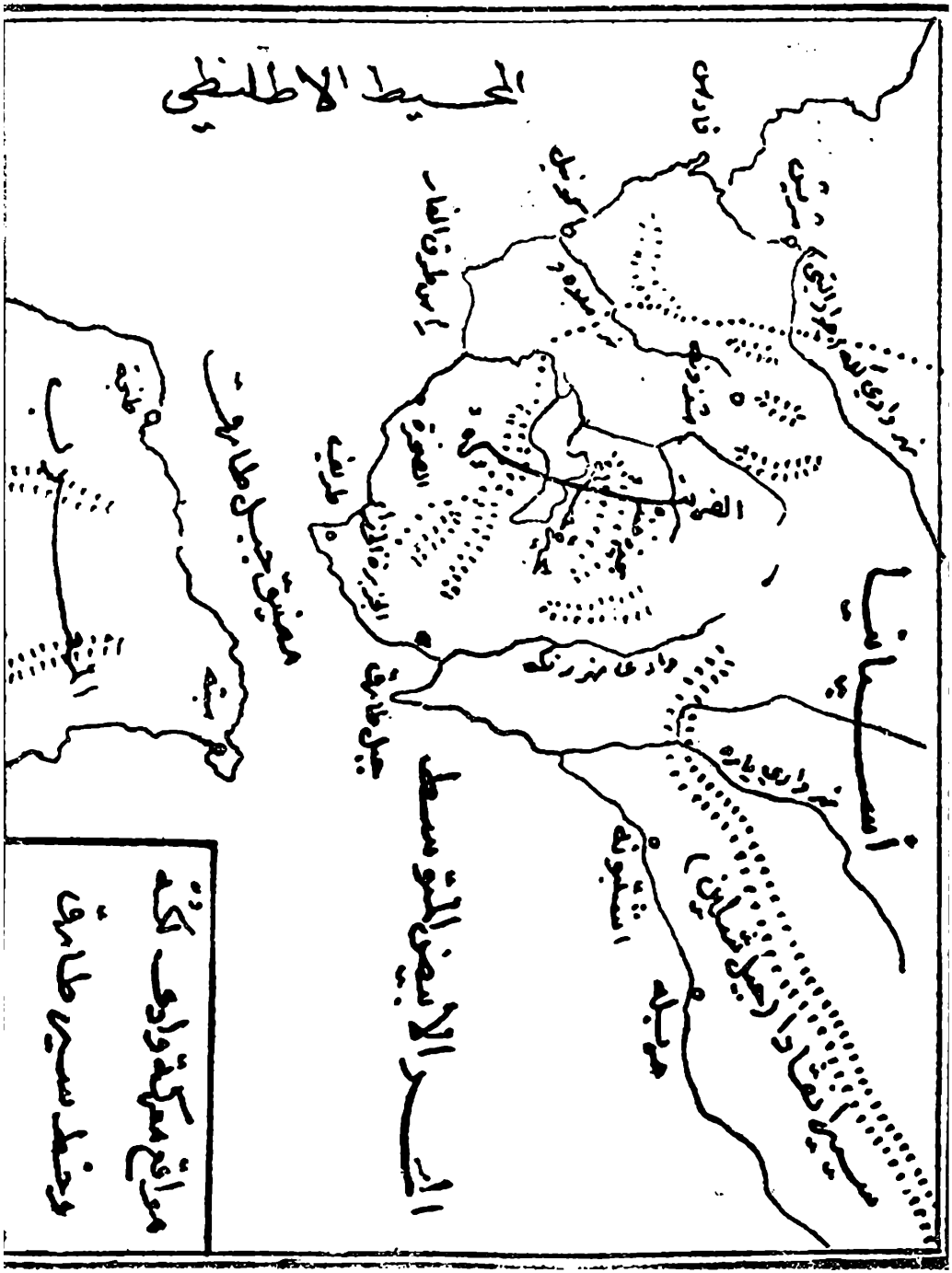
المحيط الاطلنطي
البحر الابيض المتوسط
مضيق جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
طنجة
سبتة
مليلية
وادي سلا
وادي تاجه
وادي شنيل
وادي الكبير
وادي آنه
وادي ورديه
وادي لكه
وادي ملاقه
وادي سكره
وادي ملاقه
وادي ملاقه
مواقع معركة وادي لكه
وجنود سيدنا طارق

أما التركيز على إشاعة أنّ المسلمين جاءوا من أجل الغنائم إلى الأندلس وليس من أجل الفتح ، فهم قدموا ليرحلوا ولم يأتوا ليبقوا ، فمن الصعب تصديقها ، لأنّ ورثة غيطشة اشترطوا أن يستعيدوا قراهم وضياعهم بعد الفتح، فلماذا يشترطون مثل هذا الشرط على المسلمين إذا كان المسلمون سيعودون بالغنائم الى قواعدهم في الساحل الإفريقي ، ويعود العرش وملك الأندلس إلى ورثة غيطشة الشرعيين ؟ !

ثم إنّ المسلمين قدموا إفريقية من أمد طويل ، بدأ قبل سبعين سنة (أي سنة (٢٢ هـ)) ، ولم يرحلوا عنها بل توسعوا في فتوحهم بالتدريج ، فلماذا يرحلون عن الأندلس بعد فتحها ؟

ومن الواضح أنّ أخبار المسلمين في شمالي إفريقية ، كانت معروفة لدى حكام الأندلس بخاصة ، وأهل الأندلس بعامة ، فهم لا يمكن أن يتقبلوا بسهولة الاشاعة التي تزعم : أنّ المسلمين جاءوا ليرحلوا لا ليبقوا .

ومع ذلك ، فيمكن أن يعتذر بمثل هذه الإشاعة الهارب ، عن جريمة هربه من المعركة ، مع الادعاء بأن هربه كان نكاية بالملك لذريق وانتصاراً لآل غيطشة والناقمين عليه من النبلاء . وارضاء للمسلمين المنتصرين .

وإذا كان قادة فرسان القوط قد خرجوا من المعركة بمن معهم من الفرسان – وهم خيرة جند لذريق – وتركوه لمصيره ، فمن أين غنم المسلمون الخيل ؟ لقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة ، حتى لم يبق منهم راجل ، فمن أين غنم المسلمون هذا العدد الضخم من الخيول ، إذا كان الفرسان القوط قد انسحبوا من المعركة بالتواطىء مع المسلمين ؟ وهل يمكن أن يغنم المسلمون خيول مَن تواطأوا معهم على نصرتهم ؟

وقد قُتل في المعركة ششبرت أخو غيطشة ، وكان أبرز قادة فرسان القوط ، فكيف قُتل وهو قد تخلى عن لذريق طمعاً في الغنيمة والسلامة ؟!

ومع ذلك ، فلا يمكن إنكار أن آل غيطشه ومَن يشايعهم من النبلاء ، كانوا ناقمين على لذريق الذي اغتصب عرش غيطشة ، فهم يطمعون أن يستعيدوا عرشهم بزوال لذريق ، وبرحيل المسلمين عن الأندلس ، وكان رحيل المسلمين عن الأندلس من الأماني التي يتعلّلون بها ولا يعتقدونها . وقد ورد نص في : أخبار مجموعة ، يفيد هذا الاتجاه ويشير اليه : « .... ومعهم يليان – أي مع المسلمين – في جماعة من أهل البلد ، يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فأقبل اليهم رُذريق (لذريق) ، ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها ، فلما بلغتهم عدّة المسلمين وبصائرهم ، تلاقوا بينهم – أي أولاد الملوك – فقال بعضهم لبعض : هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنّما كان من سفالنا ، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بايطان بلدنا ، إنّما يريدون أن يملوا أيديهم ، ثمّ يخرجون عنّا ، فانْهَزِم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم ، فأجمعوا لذلك ، وكان رُذريق قد ولىّ ششبرت ميمنته وأبه ميسرته ، وهما أبناء غيطشة (٢٢٣) ، الذي كان ملكاً قبله ، وهما رأس مَن أدار عليه الانهزام » (٢٢٤) ، فالاتفاق على الهزيمة لم يكن مع طارق ، بل كان بينهم لايعرف عنه طارق شيئاً ، لذلك اقتتل الطرفان المتحاربان اقتتالاً شديداً (٢٢٥) ، حتى ظنّوا أنّه الفناء (٢٢٦) ، فلم تكن بالغرب مقتلة أعظم منها (٢٢٧) ، واستمرت المعركة ثمانية أيام ، ولا يمكن أن تستمر معركة من المعارك ثمانية أيام ، وهي مدّة طويلة جداً بمقاييس ذلك الزمن ، إلاّ إذا كانت المعركة ضارية إلى أقصى الحدود ، وإلاّ إذا كان الجانبان المتحاربان

(٢٢٣) . هما إخوة غيطشة وليسا ابنيه ، كما ذكرنا ذلك من قبل .
(٢٢٤) . اخبار مجموعة (٧ – ٨) .
(٢٢٥) . اخبار مجموعة (٨) والبيان المغرب (٧) .
(٢٢٦) . البيان المغرب (٧) .
(٢٢٧) . البيان المغرب (٧) .

قد بذلا جهوداً قتالية جبارة في المعركة : « فالتقيا يوم الأحد ، وصدق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يُعرف لملكهم لذريق خبر ، ولا بانَ له أثر ، فقيل : إنّه ترجّل وأراد أن يستتر في شاطىء الوادي ، فصادف غديراً فغرق فيه فمات » (٢٢٨) . في حين تذكر بعض المصادر ، أنّ لذريق فرّ من الميدان ، والتقى بالمسلمين في معركة أخرى ، شمالي الأندلس ، فقتل فيها (٢٢٩) ، لكنّ هذا الرأي ضعيف لاتدعمه الأدلة والمصادر المعتمدة الأخرى.

يمكن أن نستنتج ، بعد عرض ما جاء في المصادر والمراجع العربيّة ، ومناقشة ما جاء فيها من معلومات ، أنّ المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة طارق ، والقوط بقيادة لذريق ، قد بذل خلالها الجانبان المتحاربان أقصى جهودهما المادية والمعنويّة لأحراز النصر ، وقد شُغل الجانبان بالمناوشات الاستطلاعية لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع حمى الوطيس بين الجانبين ، واستمرت المعركة شديدة عارمة أربعة أيام ، تكبّد خلالها الجانبان خسائر فادحة بالأرواح ، مما يدل على ثباتهما الرّاسخ العنيد في القتال . وقد ثبت قلب القوط ثباتاً أفضل من ثبات الميمنة والميسرة ، ويبدو أنّ قائدي الميمنة والميسرة اللذين كانا مع لذريق في في الظّاهر وعليه في الباطن ، آثرا الانسحاب في اليوم الرابع من الاصطدام العنيف بين الجانبين ،وفي اليوم السابع من حصول التماس المباشر بينهما ، فأصبح قلب القوط يقاتل وحده ، مما جعل المسلمين يكتسحونه بسهولة ، لأنّ قواتهم ركزت عليه ، وكانت من قبل تقاتله وتقاتل الميمنة والميسرة . وقد استطاع آل غيطشة تنفيذ مؤامرتهم على لذريق ، بعد أن كبدّ المسلمون ميمنة القوط وميسرتهم خسائر فادحة ، بحيث أوشكت الميمنة والميسرة على الانهيار تحت

(٢٢٨) . تاريخ الأندلس (٤٨) و (١٣٥) ، والبيان المغرب (٢/٧ و٨ و٩) ونفح الطيب (١/٢٤٢ و ٢٤٩ و ٢٥٨ – ٢٥٩) .

(٢٢٩) . تاريخ الأندلس (٢٩ وما بعدها) .

ضغط قوّات المسلمين ، إذ لم يكن بالامكان تنفيذ مؤامرتهم قبل أن يكبد المسلمون الميمنة والميسرة خسائر فادحة بالأرواح ، لأنّ لذريق وهو في قوّته لايمكن أن يسكت على المتآمرين ، إذ يقابل تآمرهم بالقوة ، ويصفيّ المتآمرين جسدياً قبل أن ينجحوا في تصفيته .

ولا أرى ، أنّ آل غيطشة كان لهم صلة بطارق ، ولا علم لطارق بمؤامرتهم ، إذ لم يثبت أنّهم اتّصلوا به قبل المعركة أو في أثنائها ، فقد كتموا نواياهم ، ولم يظهروها لأحد ، وإلاّ سهل على لذريق اكتشافها في الوقت المناسب ، وسهل عليه وضع حدّ نهائي لها قبل فوات الأوان .

وحين وجد لذريق ، أنّ المسلمين ، قد أجهزوا على القلب الذي يقوده ، لم يكن أمامه إلاّ الهرب تحت ضغط مطاردة عنيفة ، فغرق في وادي الوحل أو قتل ، والنتيجة واحدة ، هي أنّه لم يبق بعد تلك المعركة الحاسمة على قيد الحيـاة .

وهكذا خسر لذريق ، في هذه المعركة جيشه ، كما خسر روحه .

وقد طارد المسلمون فلول القوط بعد انسحابهم من ميدان المعركة مطاردة عنيفة ، فأبادوا مَن لم يستَسلم من القوطِ ، وبذلك جرت معارك محليّة بين المسلمين وبين القوط ، هي معارك اسثمار الفوز ، في جنوبي مدينة شَذُوْنَة وشماليّها ، فسمّيت هذه المعركة الحاسمة بعدّة أسماء مختلفة ، هي أسماء تلك المعركة الحاسمة وأسماء تلك المعارك المحليّة : معارك المطاردة ، مثل معركة البحيرة ، ومعركة وادي بكّـهْ ، ومعركة وادي لكّـهْ ، ومعركة وادي البرباط ، ومعـــركة شِـرَيْش (٢٣٠) ، ومعـــركة السَّواني ، ومعـــركة

(٢٣٠) . شريش : مدينة كبيرة من كورة شذونة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان(٥/٢٦٠)

السّواقي (٢٣١) ، فهي معركة كورة شَذُونَة بأسرها التي تقع في جنوبي غربي الأندلس (٢٣٢) .

ولا مجال لتصديق ، أنّ لذريق هرب بعد هذه المعركة نحو الشمال ، واصطدم بالمسلمين بموقعة جديدة (٢٣٣) ، لأن لذريق خسر قوّاته الضاربة في معركة وادي لكُّـهْ . ولم تكن لديه قوّات احتياطية ليقاتل بها المسلمين ، كما أنّ مطاردة المسلمين بعد المعركة كانت شديدة ، بحيث لم يفسحوا المجال لنجاة الهاربين من ساحة القتال وتجمّعهم بقيادة واحدة مسئولة ، لتجديد القتال مع المسلمين من جديد .

وجرى القتال بالنسبة للقوط ، بالنظام الحماسي للقتال : المقدّمَة ، والمؤخرة والميمنة والميسرة ، والقلب ، وهو نظام أصلح لإجراء الحركة المرنة بسهولة ويسر ، وأكفل للثبات بوجه الهجمات ، وأمنع لمباغتة العدو .

أما المسلمون ، وكان أكثرهم من البربر ، فقاتلوا بأسلوب : الكرّ والفرّ . قال ابن خلدون : « إنّ الكَرّ والفرّ هو قتال البربر من أهل المغرب » (٢٣٤) ، ولا يزال البربر يقاتلون بهذا الأسلوب حتى اليوم ، في قتالهم غير النظامي ، المرتبط بقياداتهم غير النظاميّة . أما الذين ارتبطوا بالجيوش الحديثة ، فقد أصبحت أساليبهم القتالية أساليب حديثة ، أسوة بغيرهم كما هو معروف .

وأسلوب الكرّ والفرّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلّ قوّتهم على العدو : النَشّابة منهم ، والذين يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح ، مشاةً وفرساناً ،

---

(٢٣١) . فتوح مصر والمغرب (٩–١٠) وابن القوطية (٧) وفتح الأندلس (٧) واخبار مجموعة (٢٠٦) وابن الأثير (٥٦٢/٤) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦) والبيان المغرب برواية الرازي (٨) والنويري (٢٧/٢٢) والحميري (١٦٩) وابن خلدون (٢٥٤/٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (/٢٤٩) و(٢٥٨/١) .

(٢٣٢) . الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٦٨)

(٢٣٣) Saavedra. pp. 68-69 — F. simonet, op. citp. 23-2 وانظر الرازي، نشر : سافيدرا ص (١٥٤) .

(٢٣٤) . ابن خلدون (٨٢٣/٢) .

فان ثبت لهم العدو أو أحسّوا بالضّعف نكصوا ، ثمّ أعادوا أنتظامهم وكرّوا ، وهكذا يكرّون ويفرّون حتى يكتب لهم النصر أو الاندحار (٢٣٥) .

واستطاع المسلمون إحراز النصر على القوط ، بالرغم من تمتّع القوط بمزايا عسكرية يتفوّقون بها على المسلمين ، منها أنّ تعداد القوط كان ثمانية أضعاف تعداد المسلمين ، ومنها أنّ غالبية جيش القوط كانوا من الفرسان ، وكان غالبية جيش المسلمين من المشاة ، والفرسان يتفوّقون على المشاة بسرعة الحركة وبالتأثير الحاسم في القتال ، وكان القوط في حالة إدارية : إعاشةً وكساءً وغطاءً ، متميزة على المسلمين الذين كانوا في حالة إدارية متواضعة . كما أنّ قيادة القوط لم تكن واهنة كما يتوهم قسم من المؤرخين ، فقد كان لذريق يهتمّ بالمظاهر الخلاّبة ، ولكنه كان طموحاً شجاعاً ، كما أنّه قائد ميدانيّ ، دأب على قيادة رجاله بنفسه ، ولم يتخل عن قيادتهم لغيره من قادته المرءوسين ، فكان يقود رجاله في حرب الخارجين عليه من الأسبان في الشمال ، قبل إنزال المسلمين إلى برّ الأندلس ، وقاتل المسلمين بنفسه ، كما أنّه لم يكن من العائلة المالكة في إسبانيا ، فحملته قيادته وثقة الشعب به إلى القضاء على الملك غيطشة وتولّى الملك خلفاً له بقيادته لابنسبه وحسبه ، فليس لذريق قائداً متخلّفاً بل كان قائداً لامعاً بحق ، فكانت قيادة القوط قيادة قادرة ذات كفاية عالية ، كما كانت قيادة المسلمين كذلك متمثلة بطارق بن زياد .

إنّ انتصار المسلمين على القوط ، ليس بسبب تعرّض لذريق للخيانة ، كما تردّد ذلك بعض المصادر عن حسن نية أو عن سوء نيّة ، بقصد إخفاء سبب النصر الحق ، فقد انتصر المسلمون بعقيدتهم الراسخة ، فكانوا يتميّزون على القوط بمعنوياتهم العالية المتميّزة ، وهذه المعنويات العالية هي التي تجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة باذن الله .

---

(٢٣٥) . الرسول القائد (١٠٤) ط ٣ ، وعقبة بن نافع الفهري (٥٠) – ط ٤ .

وليس معنى ذلك ، أنّ جيش القوط خلا من الخيانة ، فقد ظهرت الخيانة بعد اندحار القوط لا حين كانوا أقوياء ، وبعد الاندحار تكثر الادعاءات ويكثر الأدعياء .

وقد كان البربر قبل إسلامهم مستعبدين للروم وللإسبان ، فتبدّل حالهم بالإسلام من حال إلى حال .

وكان سرّ انتصار المسلمين في معاركهم الحاسمة : في غزوة بدر الكبرى ، والقادسية ، واليرموك ، ونَهاوند ، هو سر انتصارهم في معركة وادي برباط أو وادي لَكُّهْ ، فبالإسلام انتصروا ، وقد رفعت تعاليم هذا الدين معنويات المجاهدين قادةً وجنوداً ، وبعثت فيهم إرادة القتال التي لا تُقهر .

وكان هذا السرّ وراء فتوحاتهم شرقاً وغرباً ، فقضت على الفُرس ، وهزمت الرُّوم ، وسارت رايات النصر من بلد إلى بلد ، فأصبحت بلاد المسلمين لاتغيب عنها الشمس أبدا .

وبالإضافة إلى أن هذا الدين رفع المعنويات وبعث إرادة القتال ، فقد أعطى الفرصة لظهور القادة المتميزين والجنود المتميِّزين أيضاً ، لتستكمل حلقات عوامل النصر المعنوية والمادية المعروفة ، وهي : المعنويات العالية ، والقيادة المتميِّزة ، والجنود المتميِّزون ، وكانت تلك الحلقات متوفّرة في المسلمين الفاتحين ، فقد كان طارق قائداً متميزاً حقاً . برزت سماته القيادية طيلة أيام المعركة الحاسمة ، كما برزت في إصراره الشديد على المطاردة المتّصلة التي لا هوادة فيها . كما كان جنود طارق جنوداً متميِّزين حقّاً . برزت سماتهم القتالية في إدامة التّماس بالقوط . وإدامة قتالهم ليلا ونهاراً بلا كلل ولا ملل ، بدون إعطاء فرصة للقوط للاستراحة من عناء القتال . ودون أن يكترثوا بتصاعد أعداد الشهداء الذين تساقطوا في ميدان القتال . فقد استُشهد واحد من كلّ أربعة ، ولا بدّ أن يكون الجرحى أضعاف الشهداء ، فانتصروا

على القوط بالشهداء المُقبلين ، وانهزم القوط بالقتلى المدبرين ، وهذا هو الفرق بين الجيش الذي يتحلّى بالمعنويات العالية المرتكزة على العقيدة الراسخة ، والجيش الذي لا يتحلّى بالمعنويات العالية .

وكما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق للمسلمين الفاتحين ، وفتحت معركة اليرموك الحاسمة أبواب بلاد الشام لهم ، وفتحت معركة نَهاوَند أبواب بلاد فارس ، وفتحت معركة نابليون الحاسمة أبواب مصر للفاتحين ، فقد فتحت معركة وادي لَكُهْ الحاسمة أبواب الاندلس للمسلمين الفاتحين ، فكانت معارك الفتح التي تلتها معارك ثانوية ، لأنها معارك : استثمار الفوز ، كما يطلق على أمثال تلك المعارك الثانوية التي تجرى بعد المعركة الحاسمة ، معارك استثمار الفوز ، في المصطلحات العسكرية الحديثة ، لأن الفاتحين يقابلون فيها جيوشاً محلية ، تتّسم بصغر حجمها ، وقلّة تدريبها ، وجمع كثير من جنودها على عجل قسراً وبدون استعداد كافٍ ولا تدريب مناسب ، وبضعف قيادتها المحلّية ، وبانهيار معنويات رجالها .

وليس معنى ذلك ، أن المقاومة في معارك استثمار الفوز ، تكون مقاومة واهنة باستمرار ، بل قد تشتدّ المقاومة أحياناً ، كما سنلمس ذلك في معارك فتح الأندلس ، التي تلت معركة الفتح الحاسمة ، ولكن النّصر يكون مضموناً ، مهما اشتدت المقاومة وتأخّر الفتح أياما معدودات ، ولن يكون ذلك شيئاً مذكوراً إلى جانب النّصر المحقّق المضمون .

وقد فتح طارق شطر الأندلس ، وفتح موسى بن نُصَيْر شطر الأندلس ، ولكن ينبغي أن يُعزى فضل الفتح كلّه لطارق ، لأنّه المنتصر في المعركة الحاسمة لفتح الأندلس ، وما فتحه طارق ، وما فتحه موسى ، بعد تلك المعركة الحاسمة ، كان من نتائج معارك استثمار الفوز ، التي تثمر باستمرار النّصر المحقّق المضمون .

٦ ـ فتوح طارق قبل عبور موسى بن نصير الى الأندلس

(أ) الموقف العام بعد المعركة الحاسمة :

لم تكد أخبار انتصار المسلمين على جيش لذريق في معركة حاسمة على أرض الأندلس ، تصل إلى المسلمين في شمالى إفريقية ، حتى أقبل المسلمون نحو طارق من كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ ما قدروا عليه من مركب وقُشْر (٢٣٦) ، فلحقوا بطارق (٢٣٧) . وفاض البربر على الأندلس ، وأخـذوا يستقرون في النـواحي المفتوحة . وتضخّم تَعـداد جيش طارق إلى حدٍّ يصعب معه تقديره ، بعد هذه المعركة الحاسمة ، وأسلم الآراء هي القول ، بأن جيش المسلمين تضخّم تضخما عظيما . ورأى طارق ، أنّه لن يستطيع التقدّم للفتح بمثل هذه الجحافل الضّخمة من المجاهدين دفعة واحدة ، لصعوبة السيطرة على أرتالها المتزايدة . ولصعوبة تعسكرها في مكان واحد في وقت واحد ، ولمشاكل تأمين أرزاقها ومياهها وعلف حيواناتها من مكان واحد في وقت واحد . فآثر أن يفرّقهم إلى أرتال صغيرة بقيادات مسئولة ، للنهوض بواجبات معينّة في الفتح (٢٣٨) .

وكان من نتائج انتصار المسلمين على القوط في المعركة الحاسمة . ظهور اضطراب في شئون الأندلس كلّها ، التي لا تزال تحت سيطرة القوط : « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال » (٢٣٩) . وحسب حزب غيطشة . أنّ الفرصة قد سنحت لهم ،

---

(٢٣٦) . القشر : في الأصل ، السمكة قدر شبر ، ويراد بها هنا ، الزورق الصغير .
(٢٣٧) . نفح الطيب (٢٤٣/١) وتاريخ الأندلس (٤٨) نص ابن الكردبوس .
(٢٣٨) . انظر : فجر الأندلس (٧٥) .
(٢٣٩) نفح الطيب (١٦٣/١) برواية الرازي .

لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم (٢٤٠) ، وفعلاً بذل وَقِيلَة (أَخِيلا) جهداً كبيراً لكي يستصدر من مجلس طليطلة قراراً ، باعتباره ملكاً على الأندلس . خلفاً للملك لذريق ، ولكنّ الأمر لم يستقرّ له ، لأنّ الشّائعات كانت تملأ الجوّ بأنّ لذريق لم يُقتل ولايزال حيّاً يرزق . وعمل حزب غيطشة من جهة أخرى ، على تشجيع طارق ، للاستمرار في التقدم فاتحا ، حتى يتمّ لهم القضاء على لذريق وأنصاره نهائياً ، وما كان طارق بحاجة إلى تشجيع أحد للنهوض بالفتح ، فقد سار قدماً في تطبيق خطته العامة لفتح الأندلس. أما يليان ، فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء (٢٤١) .

ذلك هو الموقف العام بالنسبة للمسلمين من جهة ، وبالنسبة للقوط من جهة أخرى ، قبل أن يستثمر المسلمون انتصارهم على القوط في المعركة الحاسمة ، لتحقيق أهدافهم في الفتح .

ب . فتوح المدن الثانويّة :

كانت المعركة الحاسمة ، وما جرى بعدها من مطاردة طارق للقوط الهاربين ، حول مدينة شَذُوْنَة ، دون أن يفتح المسلمون هذه المدينة . ويبدو أنّ أهلها ومَن لاذ بها من القوط الهاربين وحامية المدينة من الجيش القوطي المحليّ ، قد قرّروا الدفاع عن المدينة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لَكُّهْ ، فبدأ بحصار شذونة (Medinesidonia) وفتحها عَنْوَة بعد حصار .

---

(٢٤٠) Saavedra. OP. Cit. P. 76. ، وللرازي اشارة هامة تؤيد هذا الرأي ، فقال : « إن يليان قال لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، واعمد أنت الى طليطلة ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم ، « مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئا في عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالأسراع إلى طليطلة رأسا ليتدارك الأمر ، أنظر نفح الطيب (١٦٤/١) برواية الرازي .

(٢٤١). البيان المغرب (١٠/٢) .

ومضى إلى مدينة المُدُور (٢٤٢) (Almodovar) ، وهي مدينة مَوْرور (Moron) (٢٤٣) ، فافتتحها أيضا .

ثمّ عطف طارق على مدينة قَرْمُوْنَة (٢٤٤) (Carmona) ففتحها أيضا.

واتجه طارق نحو مدينة إشْبِيْلِيَة (٢٤٥) (Sevilla , Seville) ، فتمّ له فتحها صلحاً إذ صالحه أهلها على الجِزْيَة .

وزحف طارق إلى مدينة إسْتَجَّة (٢٤٦) ، فعسكر حول المدينة ، وضرب حولها الحصار . وقد أبدت حامية المدينة ، مقاومة مستميّة للدفاع عنها ، وكانت المدينة تمثلّ المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمّعت هناك (٢٤٧) . وبعد معركة قاسية ، حقّق المسلمون نصراً آخر على الرغم من مقتل وجرح العديد من رجالهم (٢٤٨) ، وغنموا في هذه المعركة العديد من الخيول التي كانوا في حاجة ماسّة إليها ، وتفرّق مَن بقى من فلول القوط إلى المدن الأندلسيّة الأخرى .

---

(٢٤٢) المدور : حصن حصين مشهور بالأندلس ، بالقرب من مدينة قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٧/٧) ، وانظر ابن الشباط (١٠٩) برواية عريب ، ونفح الطيب (٢٦٠/١) برواية الرازي .

(٢٤٣) . التاريخ الأندلسي (٦٣) وجغرافية الأندلس واوروبا (٦٤) .

(٢٤٤) . ورد اسمها في : معجم البلدان (٦٢/٧) : قرمونية ، وهي كورة بالأندلس ، يتصل عملها بأعمال أشبيلية غربي قرطبة وشرقي اشبيلية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٢/٧) ، وانظر : تاريخ الأندلس (١٣٥)–١٣٨) نص ابن الشباط حول فتحها .

(٢٤٥) . اشبيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس ، ليس بالا ندلس اعظم منها ، وبها قلعة ملك الأندلس ، وهي قريبة من البحر ، يطل عليها جبل (الشرف) ، وهو جبل كثير الشجر والزيتون ، وهي على شاطيء نهر عظيم تسير فيه المراكب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٤/٤) وتقديم البلدان (١٧٤ – ١٧٥) .

(٢٤٦) . استجة : اسم كورة بالأندلس متصلة باعمال (رية) ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ ، واعمالها متصلة بأعمال قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٤/١) .

(٢٤٧) . أخبار مجموعة (٩) ونفح الطيب (٢٤٤/١) .

(٢٤٨) . ابن الشباط برواية عريب (١١٢) والرازي (٦٧ – ٦٨) وابن القوطية (٩) واخبار مجموعة (٩ – ١٠) وفتح الأندلس (٧– ٨) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب برواية الرازي (٨/٢) ونفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٦٠) .

ومن الطريف ، أن طارقاً ظفر بالعِلْج صاحب إسْتَجَّة ، فقد كان مُغتّراً سَيِيء التدبير . فخرج إلى النهر وحده لبعض حاجاته ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه . ووثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى معسكر المسلمين ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحبّ . وضرب عليه الجزية ، وخلى سبيله ، ولعلّه عاون في استسلام المدينة للمسلمين . فقد كانت في موقع حصين . يساعدها على الدّفاع المدبّر ، كما كان فيها حماة من القوط الهاربين ومن أهل المدينة بأعداد لا يستهان بها ، ساعدتهم على الدّفاع المديد ، ولكنّ المسلمين فتحوها أخيراً بعد أن تكبّدوا خسائر لا يستهان بها من الشهداء والجرحى .

وازدادت خشية القوط من المسلمين ، وبشكل خاص عندما تبيّن لهم أنّ هيمنة طارق أصبحت هيمنة مؤثرة وفعّالة في مناطق عديدة من بلاد الأندلس . وقد كان بعضهم يعتقد أوّل الأمر ، أنّ هدف طارق ، هو الحصول على الغنائم والعودة إلى الشمال الإفريقي ، كما فعل طَريف بن مالك من قبله ، ولكنّهم حين رأوا تقدّمه السريع ، هجروا مناطق السهول من البلاد ، ولجأوا إلى الجبال وبقية المدن الحصينة الأخرى (٢٤٩) . وأصبحت حالة القوط ممزّقة بعد موت لذريق (٢٥٠) ، نتيجة من نتائج انتصار المسلمين الحاسم ، وعمد دوق (Duke) كلّ منطقة إلى الاستقلال بناحيته ، وضرب الخوف والارتباك أطنابها في صفوف القوط ، فاتخذت البلاد المهمّة مثل قُرْطُبَة وطَلَيْطُلَة وماردة والبيرة لها حكّاماً مستقيلين (٢٥١) .

---

(٢٤٩) . أخبار مجموعة (٩–١٠) وابن الأثير (٥٦٣/٤) والبيان المغرب (٨/٢–٩) برواية الرازي ، ونفح الطيب (٢٦٠/١) برواية الرازي .

(٢٥٠) . Chr. 754, p. 147. (no. 36) حولية سنة ٧٥٤ م.

(٢٥١) . الرازي نشر جاينجوس (٦٩) ،

والواقع أنّ لهذه المدن ، ولغيرها في أيام لذريق وأسلافه من ملوك الأندلس . حُكّاماً مستقلين ، ولكنّهم كانوا يرتبطون بالملك ويخضعون لأوامره وتوجيهاته . فلما قضى المسلمون على لذريق ، كما قضوا على معظم جيشه الذي هو جيش المملكة المسئول عن حمايتها والدفاع عنها . وليس جيشاً محلياً مسئولاً عن حماية منطقة معيّنة والدفاع عنها . لم يبق في الأندلس ملك يجمع شمل الحكّام تحت سيطرته ورايته ، ولم يبق جيش للملك يفرض سيطرته على الحكّام وعلى مناطقهم . ويعين الملك على فرض سيطرته . ويسيطر على أرجاء البلاد كافة ويجمع شملها ويوحد كلمتها ، فأصبح حكام المدن الأندلسيّة والمناطق الأندلسيّة بطبيعة الحال حُكّاماً مستقلين . كلّ واحد منهم هو المسؤول الأول عن حماية مدينته أو منطقته والدفاع عنها ، إذ لم يبق مَن يدافع عنهم بعد القضاء على الملك وجيشه . بفضل انتصار المسلمين على القوط في معركة وادي لَكّة الحاسمة . وليس كما يحاول إظهاره بعض المؤرخين الأجانب . بأنّه أثر من آثار يليان وحزب غيطشة في القوط ، لا أثر من آثار انتصار المسلمين على القوط .

واستبان لطارق كثرة مَن معه من المجاهدين ، وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة . وضعف مقاومة القوط المندحرين . فاستمع الى نصيحة يليان بأن يفرّق جنده في بعوث جانبيّة قائلا له : « قد فتحتَ الأندلس ، فخذ من أصحابي أدلاّء ، ففرّق معهم جيوشك . وسر معهم إلى مدينة طُلَيْطُلة » . ففرّق جيوشه من إستجّة (٢٥٢) .

ووجّه طارق من إستجّة سرايا من جنده إلى عدّة جهات . فبعث جيشاً بقيادة مُغيث الرّوميّ مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك لفتح مدينة قُرْطُبَة

(٢٥٢) . فتح الأندلس (٨) .

(Cordoba) ، في سبعمائة فارس . فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقّة كبيرة بفضل شجاعة وصدق المجاهدين المسلمين (٢٥٣) .

وأرسل جيشاً إلى مدينة مالَقَة (٢٥٤) (Malaga) ، وآخر إلى كورة إلْبِيرَة (٢٥٥) (Elvira) ، حيث افتتح مدينتها غَرْناطة (٢٥٦) (Granada) ، وكذلك إلى كورة تُدْمير (٢٥٧) (Tudmir) ، وكانت قاعدتها أُورِيُولة (٢٥٨) (Orihuela) — التي حلّت مدينة مُرْسِيَة (٢٥٩) (Murcia) محلّها قاعدة لكُوْرَة مُرْسِيَة بدلا من تُدْمير (٢٦٠) .

وقد حدثت معارك عديدة في هذه المناطق ، فاستطاع المسلمون فتح عدّة مدن فيها (٢٦١) يقول الرازي : « ففرّق طارق جيوشه من إسْتِجَّة ، فبعث مُغيثاً الرُّومي مولى الوليد بن عبدالملك إلى قُرْطُبَة — وكانت من أعظم مدائنهم — في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ، ولم

---

(٢٥٣) . نفح الطيب (٢٦١/١) .

(٢٥٤) . مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من اعمال (رية) ؛ سورها على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٧/٧) .

(٢٥٥) . إلبيرة : كورة كبيرة من الأندلس ، واسم مدينة ايضاً ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا ، وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغيرها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٢/١) و (٣٣٠/٢) .

(٢٥٦) . غرناطة : أقدم مدن كورة إلبيرة من أعمال الأندلس أوعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها نهر قلوم ويعرف الآن بنهر حداره ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٠/٦).

(٢٥٧) . تدمير : كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيان ، وهي شرقي قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧١/٢ — ٣٧٢) ، وانظر ما جاء حول الفتح في : البيان المغرب (٩/٢ — ١١) والاحاطة (١٠١/١) ونفح الطيب (٢٥٩/١ — ٢٦٥) .

(٢٥٨) . اوريولة : مدينة قديمة من اعمال الأندلس من ناحية تدمير بساتينها متصلة ببساتين مرسية ، انظر معجم البلدان (٣٧٣/١) .

(٢٥٩) . مرسية : مدينة بالأندلس من اعمال تدمير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤٨ـ ٢)

(٢٦٠) . الروض المعطار (٣٤ و ٦٢ و ١٨١) ونفح الطيب (٢٥٩/١ — ٢٦٥) .

(٢٦١) . التاريخ الأندلسي (٦٤) .

يبق فيهم راجل ، وفَضَلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مَالَقَة ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلْبِيْرَة ، وسار هو في معظم الجيش إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة (٢٦٢) » .

ثمّ ينقل المَقَّري عن الرازي ما يتعلق بفتح تُدْمِير ، فيقول : « وأما مَن وُجِّه إلى مَالَقَة ففتحوها ، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة ، ثمّ لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجّه إلى إلبِيْرَة ، فحاصروا مدينتها غَرْناطة ، فافتتحوها عَنْوَة » (٢٦٣) . « ومضى الجيش إلى تُدْمِيْر ، وتُدْمِيْر : اسم العِلْج صاحبها . سُمِيَت به . واسم قصبتها : أُرْيُولَة ، ولها شأن في المَنَعَة ، وكان ملكها عِلْجاً داهية » (٢٦٤) . وهذا يعني ، أن سرية مَالَقَة التحقت بعد فتح مَالَقَة بسرية إلْبِيْرَة ، وافتتحا تُدْمِيْر سويّة ، فتكون على هذا – عدد السرايا التي ارسلها طارق ثلاثاً ، بدلاً من أربع (٢٦٥) .

وقد اعترض بعض المؤرخين المحدثين ، على عملية طارق في فتح جنوب شرقي الأندلس وكبار مدائنه مثل مَالَقَة وغَرْناطة وأُرْيُولَة ، وادّعوا أن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لم يفتحوا هذه النواحي إلاّ في ولاية عبدالعزيز ابن موسى بن نُصَيْر (٢٦٦) . وذكروا : أنّه لا يُستبعد أن يكون طارق قد بعث سرايا صغيرة إلىهذه النواحي وغيرها لمجرّد الأستطلاع لا للفتح ، وكان الجند عنده قد كثروا ، ففرّق أعداداً منهم في جماعات من رجال يلبان يدلونهم على الطريق (٢٦٧) .

---

(٢٦٢) . نفح الطيب (١/٢٦٠ – ٢٦١) والاحاطة في اخبار غرناطة – ابن الخطيب (١/١٠١).
(٢٦٣) . نفح الطيب (١/٢٦٣) والاحاطة (١/١٠١) .
(٢٦٤) . نفح الطيب (١/٢٦٤) .
(٢٦٥) . التاريخ الأندلسي (٦٥) .
(٢٦٦) . انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح الأندلس .
(٢٦٧) . فجر الأندلس (٧٧) .

وهذا الاعتراض خطأ بلاشك ، لأنّ المصادر المعتمدة تؤكد أنّ طارقاً بعث السرايا لهذا الفتح كما أنّ طارقاً لا يمكن أن يتقدّم شمالاً باتجاه طُلَيْطِلَة ويترك جناحه الأيمن ومؤخرته في خطر التعرض المعادي ، لوجود بلدان تخضع للقوط وتعادي المسلمين . وبدون تطهير تلك المناطق، تبقى خطوط مواصلاته معرّضة للتّهديد المعادي المباشر ، وهذا ما لايسكت عنه قائد حصيف قادر ،مثل طارق ولا يمكن أن يغض الطرف عنه في أي حال من الأحوال .

وكان فتح عبدالعزيز بن موسى بن نُصَير لهذه المناطق ليس فتحاً جديداً ، بل إنّ مدنها انتقضت على المسلمين ، فأعاد عبدالعزيز فتحها من جديد .

وهناك روايات تنص على أنّ طارقاً هو الذي قاد جيش قرطبة وفتحها(٢٦٨) ، ويبدو أنّ الرواية الأولى أصحّ ، لأنّ هدف طارق في فتح قرطبة كان ثانوياً بالنسبة إلى هدفه في فتح طليطلة عاصمة البلاد ومركز مقاومتها ، كما سيرد ذلك وشيكا .

ج . فتح قُرْطُبة :

عهد طارق إلى مُغيث الرُّومي بقيادة الحملة المتوجّهة إلى قُرطبة . ويقال بأنّ مغيثاً هذا ، كان أسيراً رومياً من الشرق ، وإنّه كان مولى للخليفة الوليد ابن عبدالملك أو لأبيه عبد الملك بن مروان (٢٦٩) . ولكنّ الأكثر احتمالاً هو أنّ مغيثاً كان رومياً من شمالي أفريقية ، ويؤيد هذا الرأي اطلاع مغيث ومعرفته الواسعة بهذه المنطقة وبالأندلس أيضاً (٢٧٠) . وقد تقدّم مغيث على رأس سرية مؤلّفة من سبعمائة فارس من إستجّة إلى قرُطبة ، بينما زحف طارق ببقية رجاله إلى طليطلة .

(٢٦٨) . قارن : ابن القوطية (٩) والرقيق (٧٦) وابن الشباط (١١٥ – ١١٦) والرسالة الشريفية (١٩٢) .

(٢٦٩) . فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) واخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب (٩/٢) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١٢/٣ – ١٣) .

(٢٧٠) . قارن : اخبار مجموعة (٣١) .

وصلُ مُغيث إلى ضواحي قرطبة ، وعسكر في شَقُنْدَة ((Seconda)) قرب ضفاف نهر الوادي الكبير ، فوجد أنّ حاكم المدينة القوطي لايزال موجوداً هناك ، ترافقه حامية مكونة من نحو أربعمائة أو خمسمائة رجل ، أما بقيّة سكان المدينة ، فقد غادروها إلى طُليطلة . وأفلح مغيث في أقتحام المدينة بسبب تهدّم أسوارها ، فانسحب حاكمها مع حاميته ، وتحصنوا في كنيسة تقع خارج الأسوار تدعى : سـان أسيكلو (San Acisclo) . حيث ضرب عليهم حصار لمدة ثلاثة أشهر . وعندما أيقن هؤلاء بعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة ، حاول حاكم المدينة وقائد حاميتها الهرب إلى طليطلة ، ولكنه وقع في أسر المسلمين ، وأبيدت الحامية بأجمعها . وبعد ذلك اتخذ مغيث قصر المدينة مسكناً له ، بينما سكن رجاله في المدينة (٢٧١) .

وكان من عوامل انتصار المسامين على القوط ، أنّهم استطاعوا قطع المـاء عن المحصورين . وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفطن إليه المسلمون أولاً ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كان مع المسلمين (٢٧٢)، ولكن المحصورين صبروا صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، حتى استسلموا أخيراً ، وأسر حاكم المدينة وقائدها (٢٧٣) . وأبيد رجاله (٢٧٤) .

---

(٢٧١) . الرازي نشر جاينجوس (٦٩ - ٧٠) وأخبار مجموعة (١٣-١٤) وفتح الأندلس (٨) والبيان المغرب (٢/٩-١٠) ونفح الطيب برواية الرازي (١/٢٦١ - ٢٦٣) ، وقارن Saavedra. P. 85

(٢٧٢) . نفح الطيب برواية الرازي (١/١٦٥) .

(٢٧٣) . فجر الأندلس (٨٢) .

(٢٧٤) . البيان المغرب (٢/١١) .